The voice of the stranger

# صوت الغريب

ماهر رزوق

Novel

رواية

# صوت الغريب

ماهر رزوق

# صوتُ الغريب

رواية

ماهر رزوق

دار الحلاج
للطباعة والنشر

الكتاب: صوتُ الغريب

الكاتب: ماهر رزوق

---

الطبعة الاولى: 2018

عدد النسخ: 1000 نسخة

الناشر

دار الحلاج للطباعة والنشر والتوزيع
العراق / بغداد - شارع المتنبي
email: dar.alhallaj@yahoo.com
+9647718539445
+9647801991695

التوزيع خارج العراق

دار المؤلف
Dar Al-Moualef
للنشر والتوزيع

بيروت - لبنان
هاتف: 00961 1 823720
فاكس: 00961 1 825815
info@daralmoualef.com

تصميم الغلاف: محمد صباح الصائغ

© جميع الحقوق محفوظة

الإخراج الفني: القسم الفني في دار الحلاج
التنقيح اللغوي: ريهام الغنام

جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة للدار والمؤلف، حسب قوانين الملكية الفكرية لعام 1988، ولا يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو إعادة نشر أي معلومات أو صور من هذا الكتاب بطريقة إلكترونية أو ميكانيكية أو أي وسيلة أخرى بما في ذلك النسخ الضوئي إلا بإذن خطي من الطرفين.

All copyright and translation reserved for publisher and author ،in accordance with intellectual property laws of 1988. The copyrighted portions of this book may not be reproduced or transmitted in any form or by any means ، electronic or mechanical،including photocopying،recording،or by any information storage and retrieval system ،without permission in writing from the publisher.

# الإهداء

إلى أمي....

التى لولاها، ما قرأت وما كتبت.

إلى أبي....

الذي أحبنى أكثر من نفسه.

إلى إخوتي وأصدقائي....

الذين آمنوا بي.

**هذه ليست مجرد رواية كما يقول الغلاف.**

**هذه قصتنا جميعًا!**

# الفصل الأول

"متحررٌ من الحبِّ.. سجينٌ في الألمِ"

صوتُ الغريب ـــــــ

يجلس في كنف الظلام بين أجساد الأصدقاء النائمة يسأل نفسه: "هل كنا نستحق كل هذا؟! ومن سيجيب سؤالي؟!!"

لا أحد يفهم سياسة القدر، أصبح بإمكاننا أن نتنبأ بسياسة الولايات المتحدة وروسيا، لكننا لن ندرك يومًا أهداف القدر.

تصفح الفيس بوك، لم ينل إعجابه أي شيء لكنه وضع بعض الإعجابات على أي حال! تذكر حبًا قديمًا.. كان طفلًا!!

هل يعقل هذا، أول قصص غرامه في الطفولة؟!!

يا له من عاشقٍ ضربت مشاعره جذورها في القدم بقوة!! متى كانت أولى قصائده؟ هذا ما لا يعرفه فقد اعتاد أن يكتب بلا تأريخ، لكم كره الوقت والتاريخ وأخطأ فيهما، ولكم أخطأ في كرهه لكثيرٍ من الأشياء..

❖ ❖ ❖

انتفض من سريره وتوجه إلى النافذة؛ نظر بتعجب إلى هذه المدينة التي لا تنام لكنه رغم كل الازدحام لم يرَ إلا انعكاس فراغه في كل شيء، تحدث بداخله صوت دفين، صوت لطالما احتار من أين يصدر؟!! فكلما سمعه، نظر حوله بدهشة بلهاء، هل يعقل أنه الوحيد الذي يسمعه؟!! وجه كل اهتمامه وتركيزه على ذلك الصوت، حاول أن يفهم ما يقول، لغته غريبة وسريالية لكنه فجأة بدأ أن يفهم!!

سمعه يقول:

"فراغٌ هذا العالم ولاشيء يحنّ إليك، غريب فيه بلا رغبات (أنت) لا شيء لتبكي ولا شيء لتضحك، تنظر من نافذة ما كمريضٍ منذ القدم بنقص مناعة ضدّ الكسل ويغريك أن تجلس في غرفة تضيق بأشيائك اللا قيمة لها، متحرراً من الانتظار ومن الآتي والماضي! يغريك أن يداعب الصمت روحك حتى تثار بصوت السكون وتزحف الشهوة تحت جلدك بحذرٍ فلا سبيل إلى إيقافها، ستطرق باب روحك وتعلن استسلامك وتنتشي بالزوال والانحلال في هذا العالم الفارغ."

❖ ❖ ❖

أخافه كلام الصوت الغريب فاستدار وأخذ يعاين غرفته وأشياءه، كل شيء لديه يعيده إلى ذكرى ما ثم أخذ يتحسس جسده فشعر بالخواء والفراغ!! عاد ليسمع الصوت ذاته يتكلم هذه المرة بدقة أكثر ويصف شعوره وصف الخبير فأنصت جيداً وسمعه يقول:

"لذيذٌ هذا الفراغ وتلك الحفنة من الأشياء التي تستغل اللحظة وتطرق أبواب الذاكرة، للذكريات طرق وأساليب ماكرة تتفقدك كالمريض وتحقنك بالدمع كلما انخفضت حرارة الاشتياق، تحقنك بشراسة حتى تتفجر براكين الحنين فلا يبقى شيء سوى الماضي أمامك في مرآة ينظر إليك بخبث كأنك صيدٌ ثمين.. أثبت الزمن قوة الذكريات على المدى الطويل وتيقن أنك ستسقط خاسراً في المعركة إذا اخترت أن تنسى، فالجبناء لا وجود لهم والشجعان أيضاً!! نحن مجرد دمى تتناقلها الأحداث، فاليوم تقودك الأيام وغداً تغرس أظافرك في جمالها وتتخذ قرار الرحيل."

❖ ❖ ❖

**الذكرى (1)**

طفل صغير كان يجري خلفها في الحقول وذلك في قريتهم البائسة لا شيء يثيره سوى هذا الشعور الغريب الذي يتملكه عندما يراها، ينادونه: "هيا بنا لنلعب." تثبت قدماه ويبحث عنها في زحام الأطفال وضجيج سعادتهم، هل يعقل؟!! كان طفلاً!! كان يلاحقها ويحاول أن يمسكها وهي كالفراشة تنتقل من حقلٍ إلى آخر، تلك الطفلة اللذيذة كانت كل القرية وكل العالم..

يسأل والده: متى سنذهب إلى القرية؟

يجيبه: "يوم الجمعة.. ااه من ذلك اليوم البعيد!!"

ذات يوم جمعة أخبره والداه أن العام الدراسي قد اقترب، لن يراها حتى العطلة المدرسية، يا الله!! كم يوم جمعة سيهدر ويقتل في مجازر الزمن..

راح يركض كالمجنون ويبحث عنها وكعادتها كانت تراقص الهواء في مساحات القمح العميق، فرمى بنفسه في فضاء الحقل وراح يلاحقها ويراقصها وعندما تعب جسداهما الصغيران؛ سقطا في حلمٍ طويلٍ تغطيهما السنابل وتحميهما من تعب الغياب المحتوم، قطف وردة من حقلٍ مجاورٍ وأعطاها لها فتبسمت شفتاها اللذيذتان وفاجأته بقبلةٍ على خده الأيسر

وهربت!! لم يعد طفلًا بل أصبح ملاكًا صغيرًا وأصبحت مساحات القمح سماءً..

❖ ❖ ❖

- اصمت، لم أعد قادرًا على الاستماع فهناك ألم ينتشر في روحي وأشعر به كالسم، يلوثني ويقتل كل جميل فيمتص كل مشاعري ويتركني جسدًا حيوانيًا بائسًا، لماذا لا أكون كالآخرين، لا أكترث ولا أبكي كالأطفال على الذكريات ولا أنتفض غاضبًا كلما تحدث الأغبياء؟! الأغبياء!! نعم، ليس كمثلهم من يشعر بالسعادة في أبسط الأشياء.. آآآآه كم أشتهي أن أكون غبيًا! لكن ليس بالإمكان أن نعود بالزمن، حينها كنت سأسلك طريقًا آخر وأتفادى دخول مكتبة أو حضور محاضرة أو ندوة شعرية فكتبي التي أحبها كانت سبب بؤسي وحزني، هل تصدق ذلك؟!! مثيرة للسخرية هذه الأقدار!!

❖ ❖ ❖

لم يكترث الصوت لغضبه ولم تبدُ عليه الشفقة، بدا معتادًا على هذا النوع من الألم كأنه طبيب جراح يجعل مبضعه في جسد مريضه بثقةٍ وخبرة، عاد ليتحدث فقال:

"عندما تشحن ذاكرتك بالكثير من الحكايات والأشخاص والكثير من القصائد والمشاعر؛ تأكد بأنك تحتفظ في رأسك بقاتلك الذي لن يرحمك يومًا، مهما جمّلت صورته وزينته بالضحكات ومهما استجديته أن يوقظ ما بداخله من إيجابيةٍ وجمال فلن ترى منه سوى النصل الذي يخترق الآني ويشوه الآتي، إنك لا تصنع إلا كائنًا متوحشًا يكبر مع كل سعادةٍ مؤقتةٍ ومع كل نشوةٍ وضحكة ثم يأكل روحك لتتحول إلى جيفةٍ حية تنتظر بصبرٍ نافد موتها اللذيذ..

❖ ❖ ❖

الساعة الآن السابعة والنصف صباحًا، ارتدى ملابسه بسرعةٍ وخرج ووجهته الأساسية الشركة التي يعمل بها لكنه في الحقيقة تائه الفؤاد، ضائع في غرابة هذا العالم الصغير، يجلس وحيدًا على مقعدٍ في حافلةٍ تمتلئ بالركاب، متعبٌ أجهده السهر، ينكزه الصوت الغريب فيصحو من غيبوية التفكير بنصت ويقول:

"للعيش لذةٌ لا تغتفر، تمنحنا حق إطلاق الأحكام، أستطيع أن أحبك متى أشاء وأكرهك متى أشاء، هكذا فقط لأنك تعجبني اليوم أيها الملاك ولا تعجبني غداً بقرنيك الشيطانيين وكلما أحببتك أكثر كرهت غيرك أكثر، قلبانا البشريان الشائكان لا قدرة لهما على احتضان العالم أجمع كالجنة الميتافيزيقية لا تملك حق احتضان الجميع برحمتها الأبدية، لا بد لأحد أن يحيا في العذاب إلى الأبد فهكذا قسمت حصص الموت العجيب لينهي لذة عيشٍ تضيق بالذنوب والمحرمات."

هذه المرة قرر أنه لن يصمت ويكتفي بتقبل كلام الصوت الغريب فترجل من الحافلة ووضع سماعة جهاز الهاتف على أذنيه كي لا يظنه الناس مجنوناً يحدث نفسه، فاستجمع كل الغرابة في داخله وقال:

"أجمل الأشياء تلك التي تتجه إلى العدم فتختصر الوقت وتنتهي لتغازل كل شيء بلا حب، لن تدركها أنت! فوحده الموت يمنحك تصريح الدخول إليها لتشعر بها عند انعدامها وعند اختصار الزمن كله في لحظة واحدة، لن تدركها كما لم أدركها أنا لكننا يوماً ما سنسقط معاً في ثقبها الأسود وسنعلن من هناك حبنا لكل شيء وكرهنا لكل شيء، لا فرق في نهاية الأمر.. في لحظةٍ يتساوى فيها المنطق والخيال في مكانٍ

لا وجود له حيث اللا شيء وكل شيء جسد واحد أو لا جسد على الإطلاق."

انتبه إلى نفسه وكأنه استفاق من حلم وذهب إلى عالم آخر وعاد ، سأل نفسه: "هل خرجت هذه الكلمات من فمي للتو؟!!"

تحدث الصوت من جديد:

"أرأيت؟! بدأت تتأثر وبعد بضع جلسات لنا معًا ستصبح حكيمًا وعندها فقط ستكره الحكمة وسوف تتمنى العودة إلى عالمك البسيط لكنه باب لا يفتح إلا من اتجاه واحد ، لن تستطيع العودة إلا بمساعدة خارجية.. يد إلهية أو بشرية نقية حد الألوهة ، ستعلن عزلتك عن كل الأشياء الجميلة فالحكمة تعني أن تتفادى الخطأ ، والأخطاء هي أجمل ما نرتكبه كل يوم وكل عام وكل عمر."

فوجئ قائلًا: "عن أي تأثر تتحدث؟! أتسمي كلامي هذا حكمة؟!! ليس سوى تخاريف لا معنى لها وعلى كل حال أفضل الجهل والعمى على أن أرى الحقيقة من منظورك البشع."

الصوت: "طبعًا منظوري بشع لأنه جليٌّ وواضح ، نحن لا نكره إلا الحقائق وكل شيء عداها نحبه ، نرتدي الأقنعة ولا تجذبنا إلا الوجوه المقنعة ، نفضل المنافق على الصادق لأننا نكره المرايا التي تعكس حقيقة النفوس، كلما كذبنا أكثر

أحبنا الناس أكثر، هذا الحب الوهمي الشاحب لم يزل منذ القدم يحكم علاقات البشر حتى أنه الآن أصبح كالهواء ضرورة لا بد منها وسيد يحرك أفعالنا وردود أفعالنا كالدمى."

❖ ❖ ❖

يصل إلى الشركة التي يعمل بها، فوجئ بأنهم سيقومون بدورةٍ تدريبية على خدماتٍ جديدة للقسم الذي يعمل به، ينقلونهم إلى غرفةٍ جديدة ثم يجلس على الطاولة وأمامه قلم حبر وبضع أوراق بيضاء، يبدأ المدرب بالشرح لكنه الآن في عالمٍ آخر حيث يرى تلك الأوراق أمامه ويشتهي أن يدون كل ما يحدث معه؛ وحدته وذلك الصوت الذي يهاتفه كل يوم..

يحدث نفسه قائلاً:

"تغريني الأوراق الحمقاء التي ترتدي البياض وتنتظر جنون أقلامي لكنني لن أكتب شيئاً فكل ما سأكتبه سيكون تأريخاً لحمقي وحمقك، بكتاباتي سأعطيك فرصة كي تخرج إلى هذا العالم فتقتله بوعظك البائس."

ضحكة مدوية تصدح في رأسه، ضحكة الصوت الغريب يقول:

"أضحكتني، أتخاف على عالمك من وعظي؟!! أي عالم هذا؟! أنتم البشر ورثتم عقدة الظلم منذ القدم، لا شيء يقع على عاتقكم فدائمًا هناك مجرم لا علاقة له بكم، تنوعت الأسماء والهدف واحد؛ شيطان وحواء ونفس أمارة بالسوء وقدر وجبرية ، دائمًا تجدون الحل الذي يبرر حمقكم ويثبت وقوع الظلم عليكم، تحلمون بجنةٍ لم تدفعوا ثمنًا لها وتخافون جحيمًا تعيشونه كل يوم!! لا شيء أغرب منكم، تتهمونني بالوعظ ولديكم أحكام وعظات وفتاوى وصكوك وقوانين لم ولن ترحم إنسانًا ، هربت سعادتكم من هذا العالم منذ زمن ولم تزل أوهامكم تطاردها ، لن تفسد هذا العالم عظة مني لا قيمة لها فأنا صوت يصرخ في رأسٍ واحد فلا نفع لي أمام صوت آخر يصرخ في ملايين الرؤوس ويفسدها ، ارحم نفسك من هذا النفاق واكتب ما نقوله الآن لعلّه ينفع أحدًا يودّ لو يصحو ويخرج من مستنقع الغباء هذا."

❖ ❖ ❖

# الفصل الثاني

لا وجود إلا لعلامة واحدة تشهد بأننا فهمنا كل شيء وهي أن نبكي بلا سبب!!

**اميل سيوران**

صوتُ الغريب ـــــــ

في إحدى الليالي الهادئة جلس وحده منتظرًا صوته الغريب كي يأتي فلقد كان يرغب بالتحدي ولم يعد يكترث لأي شيء وليس هناك ما يخسره،

فجأة وبعد ساعة من الانتظار تحدث الصوت بعفوية وقال: "ماذا تريد أن تعرف؟ لماذا تنتظرني؟"

قال: "كل شيء.. كل شيء." أجابه الصوت: "لن تحتمل أن تعرف كل شيء فعقلك الباطن مليء بترهات الماضي والأفكار القديمة ، ولذلك يحتاج لتفريغ كاملٍ أولًا." قال: "لا تخف عليّ ولا تنافق بالاكتراث لأمري، أخبرني الآن فأنا مستعد." فرد الصوت: "حسنًا ، اسمع إذًا." تكلم مع صوته الغريب طوال الليل وعند شروق الشمس حل الصمت من جديد ليعلن عن مجهولٍ أكبر وخوفٍ أكثر شراسة ، نفض عن جسده كسله ونعاسه وارتدى أفضل ملابسه وهم بالخروج فرآه صديقه وسأله: "إلى أين يا مجنون، لم تنم البارحة وتخرج منذ الصباح الباكر.. إلى أين؟!" لم يجب إلا بنظرة غريبة حادة وخرج يمشي تقوده الخطى إلى حيث لا يدري..

❖ ❖ ❖

"هذا العالم الممل لا يصلح لي فسأرمي بنفسي من أعلى الجسور وأنا مجردٌ من ثيابي وهمومي وقلقي، سأفصح للكون أولًا عن كل بائسٍ أو خائن أو منافق صادفته في حياتي وسيصدم لكثرتهم!! سأروي له كل قصص الحب الخائبة وكيف أن يده العظيمة كان لها الدور الأكبر في كل ارتباط وكل انفصال، حقيقة قد يسميها البعض تهربًا من المسؤولية!! سأروي له قصة بلدان دمرت واندثرت كأنها بنيت في الرمال، سأناقشه طويلًا في محاولةٍ يائسة لإقناعه أن المتفرج لا يقل مسؤولية عن القائم بالجرم وسأشعر بالارتياح!! وربما أطبق فمي وأحتفظ بكل هذا الهراء لنفسي وأطلق رصاصة من مسدسٍ ما على رأسي وأنتهي كأنني لم أكن أبدًا."

❖ ❖ ❖

وعلى حافة أحد الجسور أوقفه صوت غريب عن محاولة الانتحار بل إنه الصوت نفسه لكنه أوضح وأكثر تجسدًا، وقف مذهولًا أمام كيانه النقي وسأله: "من أنت؟" أجاب:

"تتحدث طوال الليل فتشرق الشمس لتمحي كل أثر لي في نفسك الهشة والبسيطة!!"

- أنت؟!!

- نعم، هذا أنا أخيرًا.

- ولكن لماذا كشفت نفسك؟!

- لأنك الآن على وشك أن تدخل مرحلةً جديدةً من دورة الحياة وواجبي أن أساعدك.

- وما المطلوب مني؟!

- بل ما هو المطلوب مني أنا؟!

- لم أفهم.

- جئت لأقضي على تعاستك إلى الأبد وأحقق لك ما تشتهي نفسك اليائسة.

❖ ❖ ❖

أيقن أنه لن ينجو من سطوة هذا العالم الخبيث حتى لو أنه رفض العرض السخي الذي قدم له ثم أخذ يفكر: ما الذي يدفع الأقدار إلى اختياره هو أو غيره وما المعيار المجهول الذي تعمل به هذه الحياة؟ كيف تقدم كل ما لديها لأشخاص وتأخذ كل شيء من أشخاصٍ آخرين؟ لكنها مع ذلك تكون عادلة!!

ثم فكر أيضًا: لو أنه رفض هذا العرض، هل سيحدث موقفه اختلافًا أو خللًا في توازن الكون؟!

طبعًا لا، سيقبل أحد غيره وتستمر اللعبة إلى ما لا نهاية.

❖ ❖ ❖

**فاصل زمني ////**

ما الذي قد يدفعني إلى الامتثال لإغراءاته؟!

ربما هي الشهوة التي تنمو كالطفح تحت الجلد وتمتد لتخنق عقولنا البسيطة التي تستسلم لها مباشرة،

نحن مجرد مخلوقات شهوانية لا أكثر ولا أقل ولولا تلك الشهوة للمال والطعام والجنس والسيطرة والدماء لكنا منقرضين منذ زمن لكنها تلك القوة العجيبة التي تقودنا من ياقة الروح وتشعل في أجسادنا طاقة هائلة لا يطفئها إلا الحصول على ما تريد، هي التي تحفظ جنسنا من الانقراض وكل ما تراه الآن، كل هذا التقدم الفكري والعلمي ليس إلا نتيجة لتسخير تلك القوة في اتجاه ما، وكل هؤلاء القتلة والمجرمين والإرهابيين لا يقلون شأنًا عن أي عالم أو مفكر، فالاختلاف الوحيد هو في الطريق الذي اختاره ذلك الكائن عندما انفجر

السد العظيم في أعماقه وانهالت سيول الشهوة لتذلل كل شيء في طريقها..

❖ ❖ ❖

**الذكرى** (2)

في مكان عمله القديم كان يجلس في المكان المعتاد منتظرًا مجيء حبيبته بكل اشتياق العالم وحنينه، فاليوم هو عيد ميلادها وهديته حاضرة بين كفيه المرتجفين كما أنه يبتسم بلا سبب ويشعر بسعادة العالم كله تتراقص في قلبه، مرت الدقائق والساعات ولم تأتِ فاتصل بها ثم أغلقت الخط ففهم أنها آتية لا محالة، انتظر وانتظر وانتظر ثم طرقت الباب فجأة ودخلت بجمالها الآسر وتوغلت بنورها العظيم إلى روحه وأدخلتها في سكرةٍ لذيذة لم تفتأ أن استيقظت منها مصدومة بها لتقول:

-لن أستطيع اليوم.. مشغولة جدًا، لا تغضب مني.. سلام!!

أدارت ظهرها دون أن تنتظر رده وذهبت، بكل ما في هذا العالم من بساطة ذهبت!! وبقي هو وحده لا يدري ما يجتاحه من مشاعر، امتزج الغضب بالحزن بالخوف بالصمت بالموت اختناقًا وعجزًا، قرر أن يذهب إلى أحد الأصدقاء ليجالسه قليلًا وينسى

حزنه الكبير، طرق بابه فلم يجب ثم سمع صوتًا من الداخل وحركة ما تبعهما صمت طويل فحاول فتح الباب ليجده مغلقًا فتعجب موقف صديقه هذا، ما الذي يحدث اليوم؟! لماذا يهجره الجميع؟!!

قرر أن يلبث قليلًا بجوار باب الغرفة منتظرًا أن يخرج صديقه ليعلم منه سبب هذا التصرف، وبعد ساعة من الانتظار فتح الباب أخيرًا ويا لها من صدمة!! تخرج حبيبته من غرفة الصديق المغلقة محمرة الوجه حانية الرأس، خجلة!! يراها وتراه، تلتقي عيونهما ولا يقولان شيئًا ثم ينطق هو بكلمة واحدة "اتبعيني" .. يجلسان في غرفته ويطول الصمت ثم يقطعه هو ليقول والدمع في عينيه يتوق إلى الخروج: "لماذا؟! أحببتك أكثر من نفسي، كنت أميرة على عرش قلبي وكنت كالخادم لك، ما الذي حدث؟ لماذا؟ رجل متزوج؟! صديقي؟! لماذا؟! لماذا؟! تحبس أنفاسها للحظات ثم تقول: "ليس لك أن تسأل فلا شيء يربطنا، لست خطيبي أو زوجي ولا حق لك فأنا حرة." تغافله إحدى الدموع وتسقط على الطاولة ثم يقول لها: "أخبريني أنه لم يحدث شيء بينكما، أخبريني وسوف أصدقك.. اكذبي وسأصدقك." فتجيبه: "لا لن أكذب ولن أخبرك شيئًا، ببساطة لا علاقة لك." ثم تصرخ به: "لا علاقة

لـك، أفهمـت؟!" ثـم تخـرج مـن بـاب غرفتـه ومـن قلبـه وحياتـه إلى الأبد لتنتهي علاقة الحب الأعظم في يوم عيدها الرابع!!!

❖ ❖ ❖

قالهـا الصـوت الغريـب بكـل ثقـة: "اطلـب مـا تريـد الآن، أي شـيء تريـده وسـأحققه؟!" وبعـد صـمت طويـل ثقيـل أجابـه: "وأيـن المتعة؟"

-ماذا؟!!

-أيـن المتعـة في أن تحصـل علـى أي شـيء، كـل شـيء بـلا جهد أو انتظار أو يأس أو تعب؟!"

-مـا هـذا الهـراء الـذي تقولـه؟ أتتـك الفرصـة لتحصـل علـى أي شيء تريده وترفض؟!!

-لـيس الـرفض لمتعـة الـرفض رغـم أننـا لا يمكـن أن ننكـر متعته!! لكنني أسأل فقط.

- وتنتظر مني أن أجيبك؟!!

- لا.. أنتظر منك أن تسمع:

"روعـة الجهـد والتعـب والألم، أنـك لـن تتسـاهم وسـتقدر الشـيء الـذي تعبـت وتألمـت لأجلـه وربمـا تفعـل المسـتحيل لتحـافظ

عليه ، فقدانه سيحولك إلى فراغٍ هائلٍ يبتلعك من الداخل وتموت شيئًا فشيئًا ،

اسمع: ما هو هدف الحياة؟ لماذا يعيش البشر؟ لماذا وجدنا؟ لماذا نموت؟ لأي هدف نحيا؟ وإلى متى؟!!

أسئلة لا تنتهي ولا فائدة منها ، فالحقيقة في البساطة والواضح أننا نحيا لنتجنب الألم ولنحصل على أكبر قدرٍ من اللذة!! هكذا بهذه البساطة ، لا أعلم لماذا تجنح عقولنا إلى التعقيد حتى الأسئلة البسيطة لا تعجبنا وعندما نجد الأجوبة لأسئلتنا المعقدة ، لا ترضينا فنقول: أيعقل هذا؟! ألهذه الأسباب التافهة نعيش؟!! لا لا.. لا بد من وجود حكمةٍ إلهية لما يحدث ، حكمة لا نعرفها ولن نعرفها ، إنها حدود البشر رسمناها بأيدينا لنقف أمامها عاجزين نتأملها بإجلالٍ واحترامٍ كأنها أصنامنا الجديدة ، هل تعلم؟ كنت أحدث نفسي قائلًا: لكل عصر أصنامه ، لا يستطيع الإنسان أن يحيا بلا صنم يجلّه ويعظمه واليوم أصبحت واثقًا ، حدودنا وضعفنا وذلنا هم أصنامنا الجديدة!!

❖ ❖ ❖

صمت طويل يخيم على لقائهما ثم يكسره الصوت الغريب بقوله: أليس في حبهما للمعرفة لذة أيضًا؟!!

أليس فضول الإنسان المدفوع بسعيه إلى لذة المعرفة هو ما أوصله إلى عالم اليوم؟!! ليس الأمر بهذه البساطة يا عزيزي، أن تحيا حياة بسيطة في عالمٍ شائكٍ ومعقد هي أصعب الأمنيات، جلسنا قليلًا وتحدثنا وبعدها أصبحت حكيمًا غريب الأطوار ثم قررت الانتحار ثم الآن تبحث عن نفسك الأولى، تحاول أن تعود إلى البداية كأن انفجارًا عظيمًا حدث في داخلك وتريد أن تلغي حدوثه وهذا ما لن تستطيعه أبدًا!!! دعنا نعود إلى الذكريات وندون بعضها فأحيانًا تكون حلول مشاكلنا في الماضي، نسيناها ونحن في عجلةٍ من أمرنا يقودنا شوقنا إلى معرفة الآتي،

أخبرني عن مغامراتك مع النساء، هل مارست الجنس؟ هل تحب صنفًا معينًا من النساء؟

هل كان لك علاقات متعددة؟ هيا أخبرني.

- دعني الآن من النساء وهمهم، أشعر بألمٍ هائلٍ في كامل الجسد ولا أعلم متى كانت آخر مرة صحوت فيها من ألمي!! صحيح، لماذا وجد الألم؟!! أعتقد بأن الألم لم يوجد إلا ليعلن عن هزيمتنا الأبدية في معركتنا الأزلية مع الطبيعة!! تلك الطبيعة ما زالت تنتصر رغم كل التقدم وكل محاولاتنا

الجهيدة للسيطرة عليها وهذا الألم اللعين أكبر دليل على ذلك، إنه كطوق الكلاب محكم الإغلاق على رقابنا ويذكرنا بعبوديتنا وضعفنا وخسارتنا الدائمة،

أحيانًا أشعر أنها مجرد لعبة ما فالطبيعة في كل صباح توزع الطاقات على البشر توزيعًا لا يمت إلى العدل بصلة، فترى بعضهم يضج نشاطًا وحيوية وآخرين مثقلين بالتعب والكسل!! وتبدأ اللعبة كل بطاقاته الممنوحة من الطبيعة نفسها التي تنتصر عليه وتستمتع بآلامه وعذاباته!! هل يعقل كل هذا الذل الذي يعيشه الإنسان؟! عدوه اللدود يوزع عليه الأسلحة التي سيواجهه بها بالنسب التي يحددها هو ويهزمه دائمًا، (هه) سخافة!! ونستغرب إذا أصبح أحدنا دكتاتورًا أو سفاحًا أو قاتلًا متسلسلًا!! إذا كانت ما يدعونها أمنا (الطبيعة) تفعل بنا كل هذا فلا عتب على الإخوة والأخوات!! قالها (ألبير كامو) قديمًا: المعنى الواقعي لمصطلح (الحياة) هو كل ما تقوم بفعله لكي تمنع نفسك من الانتحار!! فيوم بلا ألم هو يوم هارب من التقويم والهاربون يا غريب جُملاء بطبعهم، كسروا كل أنواع القيود وفروا من العادات والتقاليد وسجونهم التي تخنق شبابهم وأحلامهم فهربوا من العائلة وثأرها القديم ومن بلدانهم وحروبها، ومن نساء لا تعرف من الحب إلا الذهب والاحتفالات..

سـألتني عـن النسـاء وسـوف أجيبـك: النسـاء في بلـدانـنا يـا غريـب، إمـا أن يتـزوجن صـغيرات السـن وإمـا أن يتعـودن العنوسـة والوحـدة لكـنهن أبـدًا لـن يقبلن بـك أنـت، ومـن أنـت؟ أنـت الهـارب الـذي تجمعـت كـل الظـروف الحمقـاء لتدفعـه إلى الهـروب، أنـت الملعـون منـذ الـولادة بالسـعي مـدى الحيـاة نحـو أحـلامٍ وهميـةٍ وحـبٍ فاشل،

أنـت الهـارب الـذي تلوكـه ألسـنة الجهلـة والسـارقين ومـدعي الوطنية والبطولة وما أكثرهم هؤلاء في أوطاننا يا غريب!!

❖ ❖ ❖

- الصـوت الغريـب: حسـنًا حسـنًا، دعـك مـن الماضـي والجـنس والنسـاء فأنـت في اسـطنبول الآن، أخبرنـي عنهـا فمـا رأيك بها؟

- حسـنًا، اسـطنبول يـا غريـب ليسـت إلا جحيمًـا بقنـاعٍ فردوسـي، وحـش مفـترس بوجـه حمـلٍ وديـع وإعصـار مـدمر يبـدو كالنسـمة الصيفية البـاردة، إنهـا الخدعـة الـتي لا تسـتطيع تفاديهـا أو اتخـاذ احتياطـات الحـذر تجاههـا، إنهـا الفـخ الـذي تسـقط بـه رغم علمك المسبق بوجوده!!

هـذه المدينـة تلتهم أيامـك بشـرهٍ وتـدعك وحيـدًا في غرفـةٍ بـاردةٍ في حـيٍّ قـديم!! في كـل أيامــك تخـدع خدعــة تبــدأ في الصــباح بالسـيميت (معجنـات تركيـة) وتنتهـي في المسـاء بحـنينٍ غـبيٍّ إلى بلـدك!! قاتـل محـترف هـي اسـطنبول، تقتـل بصـمتٍ عمـرك القصـير وتسـامحها مـع أول جلسـةٍ تافهـةٍ أمـام البحـر وأول رشـفة مـن كـأس شاي ساخن!!

❖ ❖ ❖

ويعود الصوت الغريب إلى فضوله الخبيث فيقول:

- أخبرنــي عــن علاقاتــك بالنســاء، أخبرنــي عــن مغامراتــك الجنسية.. هيا.

يقول بعد تنهد طويل:

- مــاذا ســأقول يــا غريــب؟! كلمــا تحــدثت عــن هــذه الــذكريات يجتــاحني شـعور متنــاقض بــالحنين والكــره، بالحــب وعدم التصديق والشهوة والتقزز!!

أنــا ممــزق يــا غريــب لكــنني ســأروي لــك لأشــعر بالارتيــاح وأنــت أيضًــا لكــن مــن أيــن أبــدأ؟ مــن قبلتي الأولى حيــث أول امــرأة أمسكت عضوي وقالت: "يااااه ما أحلاه!!"

أم مـن المـرأة الخـبيرة الـتي كـان عضـوي لـديها مجـرد ضـيف مـارق أكرمتـه كغـيره وأكملـت طريقهـا وأكمـل هـو.. أم مـن المتزوجـة الـتي تعشـق امتصـاص العضـو ويجبرهـا غيـاب زوجهـا - للعمـل في بلـدٍ آخـر - علـى امتصـاص أعضـاء الآخـرين؟!! أم مـن البريئـة الـتي كانـت تـؤمن بالحـب الأبـدي ولم تكـن تعـرف عـن الجـنس شـيئًا ووقعـت في قبضـة الرجـل الـذي أصـبح خـبيرًا وعـديم العواطف؟! من أين أبدأ يا غريب؟!

- ابدأ من أي مكانٍ وأي زمانٍ تريده، لا فرق.

❖ ❖ ❖

تحادثنـا البارحـة يـا غريـب، كنـا كالأنبيـاء نبحـث أمـور الأرض كلـها فلقـد كانـت مـرآة أفكـاري وكنـا أطبـاء وعلمـاء وأدبـاء، تناقشـنا في كـل شـيء حتـى كـأنني نسـيت انتماءهـا وانتمائي،

كـان صـوتها بـوابتي إلى معرفـةٍ لذيـذةٍ وأنوثـةٍ لازمـة ورقـي مطلـوب، يـا غريـب هـل تعتقـد أن مشـاكل العـالم كلـه يمكـن اختصـار حلـها في سـاعةٍ وأربعـين دقيقـة؟!! هـل تصـدق خرافـة كهـذه؟! حـدثت يـا غريـب إنهـا معجـزة العصـر لـذلك قلـت لـك:

"كنا كالأنبياء وكنا نمارس طقسًا غريبًا مثلك، صلاةً مبهمةً وترانيم عذبة جدًا،

كنت محلقًا في السماء يا غريب وغرفتي لم تعد تتسع لقلبي الكبير فلقد أحببت كل شيء وأحبني كل شيء.. كانت عندما نلتقي تتمدد على السرير متعبة وتنتظرني أن أغازلها مرة أخرى وعندما أقترب منها تستدير وتنام على بطنها لتبرز مؤخرتها الغنية للأعلى، فأحكم عليها ليقبل فمي رقبتها وعضوي يبحث عن ملاذه بين فخذيها وعندما أدخله تطبق عليه بكل قوتها وكأنها ستبقيه إلى الأبد وتتقصد أن تتنهد كالعاهرة الخبيرة رغم أنني حبها الأول يا غريب لكن يبدو لي أن كل فتاة تحبني لا تتركني إلا وخبرتها تنافس أعلى شهادات (البورنو) لكنها كانت تفضل الجنس على الحائط!! نعم على الحائط، كانت توقفني وأنا أهم بالخروج من الغرفة وتجذبني إليها حتى يلامس ظهرها الحائط ثم تمتص شفتيّ بشهوة عارمة حتى أنتصب ثم توليني ظهرها لتتخذ من الحائط سريرًا لها فتنزل سروالها الداخلي وتمسك عضوي بيدها وتغرسه في دفئها وتشهق.. تشهق بكل ما في هذا العالم من شبقٍ فلقد كانت لذيذة جدًا يا غريب.

فكّر: يا الله ما الذي أقوله؟!!

-لا تخدعني يا غريب، الإفصاح عن الأسرار والذكريات ليس الدواء السحري لآلامي، لا تدفعني إلى الانفجار كلامًا ولا تدفعني إلى الغوص أكثر فلن أجني من ذلك إلا الغرق في الحزن العميق.

-لماذا؟ هذه الأسرار أنت تعرفها لكنك تخاف أن يعرفها الجميع، أليس كذلك؟

-نعم.

-إذًا ما يهمك حقًا هو مشاعر الآخرين تجاهك، موقفهم.. محبتهم.. إعجابهم.

-ربما، نعم وما الخطأ في ذلك؟

-الخطأ.. (امممم).. نعم ما الخطأ؟

لنفترض معًا أن رجلًا يحب زوجته كثيرًا وأن هذا الرجل تربى على عقيدة تدعم جريمة الشرف ولنفترض أن ذلك الرجل يعيش مع زوجته في منزلٍ بعيد عن الآخرين بعيد جدًا، وما من أحد يراقبه أو يحاسبه ولنفترض أن زوجته خانته يومًا مع عابر سبيل وعرف بذلك فاعترفت زوجته بالخطأ وندمت وتوسلت إليه ووعدته بأنها لن تعيد ذلك أبدًا لأنها تحبه كثيرًا، هل يقتلها؟

-ربما.. لا أعرف.

-هناك احتمالان في غياب المجتمع؛ الأول: أن ينسى الأمر ويدعي أن (المسامح كريم) وأن الله نفسه يسامح الكافرين

بـه، والاحتمـال الثـاني: أن يقتلـها ويصـبح بطلًـا بنظـر نفسـه علـى الأقـل!! لكـن كـلا الاحتمـالين يحـق لـه نسـبة 50٪ مـن إمكانيـة الحـدوث، أمـا لـو كـان يعـيش في مجتمعـه الـذي يـؤمن ببطولـة القاتل في جريمة الشرف فكم ستكون نسبة الاحتمالين؟!!

-طبعًا سترجح كفة الاحتمال الثاني.

-إذًا يـا صـديقي مـا أنـتم إلا عبيـدًا للماضـي والعـادات والتقاليـد، عبيـدًا للنصـوص القديمـة وأبطالًـا وهمـيين في معـارك الخرافات والتخلف، هـذا ما تخافـه أنت (المجتمـع) لاحـظ أن كـل مـن هـاجر إلى الغـرب إمـا تقيـأ خوفـه في جرعـة حريـة زائـدة أو تقوقـع على نفسـه واختنـق بالعقـد النفسـية الـتي تتولـد مـن صـراعات يوميـة بـين الرغبـة والمبـادئ، اخـتر أنـت الآن، مـاذا تفضـل أن تكون؟

# الفصل الثالث

لا أكتب تمجيدًا لحياةٍ تسعى إلى موتٍ مؤجلٍ..

بل أكتبُ لأثير فضيحة الألمِ..

لأزيل قناع الابتسامِ..

وأعري تاريخًا كاملًا من الكذب..

والحماقة والتعاسة.

صوتُ الغريب ـــــــ

المكان: حديقة عامة في اسطنبول.

الزمـــــــان: لا أذكر.

أجلس أنا على مقعد متطرف والصوت الغريب يجلس بجانبي، يبعثر نظراته هنا وهناك كأنه يسجل كل شيء حتى أنفاس البشر..

-أسأله: ما هو الحب يا غريب؟ هل يعقل أن الحب كما يقول العلماء مجرد حاجة جسدية كيميائية؟! أي أن نقصًا أو زيادةً في هرمونٍ معين نسيت اسمه، قد يؤثر على المحبة في قلوبنا؟! هل يعقل أننا في المستقبل قد نعالج الكره والنفور بكبسولات أو بشراب للحب؟!

هل يعقل أن نتمكن أخيرًا من الموت بجرعة حبٍّ زائدة؟! أوووه.. يا لها من ميتة جميلة يا غريب!! ما أعرفه عن الحب حتى الآن يا غريب أنه قد يكون هدية إلهية تختار صاحبها بمعايير ومقاييس معينة لا نعرفها كما في روايات (باولو كويلو) أو أن الحب هو لعنة تحل علينا وتغير أقدارنا كما في رواية (عزازيل)

ولعل الحب هو الحرية كما في رواية (زوربا) أو أن الحب هو النهاية والنتيجة لكل شيء كما تقول (إليزابيث غيلبرت) وربما أن الحب لا وجود له أساسًا، ربما كان يومًا وانتهى زمنه كما يقول (الماركيز دي ساد).. حقًا ما هو الحب يا غريب؟!!

- الحب يا صديقي هو شيء لا يمكن للعلم أن يفسره حتى لو كان قادرًا على صناعته فإنه سيبقى صناعيًا وكما في كل الأشياء ما تقدمه الطبيعة يبقى هو الأفضل

فهو شيء كالإيمان بكل أنواع الآلهة، وأمر

لا يفهم بالمنطق والحجج العقلية إنه أمر خاص لا تحصل على تعريفك له من الآخرين وإنما تكتشفه بنفسك ويبقى لك وحدك.

- وكيف نكتشفه؟!!

-تكتشفه عندما تكون وحيدًا وسعيدًا في ذات الوقت وقليلون جدًا هؤلاء الذين عرفوا الحب على حقيقته فكل ما تعرفونه اليوم هو نوع من أنواع الحب الصناعي، صناعة فكرية وجسدية وهرمونية وجنسية.. كثيرة هي الأسماء والمعنى واحد!!

-هل تعلم يا غريب أن أذني بدأت تؤلمني.

-وما السبب؟ هل حديثنا هو السبب؟!!

-ربما نعم فلقد قرأت في أحد الكتب أن أذن الإنسان تؤلمه عندما يسمع كلامًا لا يرغب بسماعه، كلامًا لا يعجبه،

ليست الأذن فقط وإنما قد تؤلمه حنجرته لأنه يرغب بقول شيء ما ولا يستطيع فإما يخاف على مشاعر المستمع أو يخاف على نفسه من رد فعله.. قد تؤلمه الخصية أيضًا ويتعرض لضعف جنسي بسبب جرح عاطفي أو خيانة أنثى، تخيل!! قد يصاب أيضًا بألم مزمن في الظهر ويكون السبب فقدان الشعور بالأمان والإحساس بأنه وحيد، لا أحد هناك ليدعمه كما يقال في بلدي (لا ظهر له) وقرأت في نفس الكتاب أن الأشخاص الذين ينتقدون الناس كثيرًا يعانون من آلام حادة في المفاصل، هل تصدق ذلك يا غريب؟! يبدو أن أجسادنا تعاقبنا على المشاعر التي نحملها، مشاعرنا هي سبب ضعفنا كما أنها في كتاب آخر سبب قوتنا فقد قرأت أيضًا أنك لو أردت شيئًا ما ووجهت مشاعرك كلها تجاهه وأحببته ورغبته بشدة فلا شيء سيمنعك عنه..

-أنت لا تعرف إلا ما تقرأه في كتبك البلهاء.

-كلا.. أعرف أيضًا أن أمي كانت تقول لي أن الطنين في الأذن اليمنى يعني أن هناك من يتحدث عني بالخير واليسرى معناه أن هناك من يتحدث عني بالشر وأن الحكة في اليد اليسرى تعني أنني سأدفع المال والحكة في اليمنى تعني أنني سأقبض المال، أعرف أنني رأيت كل حبيباتي السابقات في فنجان القهوة وأن قراءة المستقبل أمرٌ سهلٌ جدًا ولا تحتاج إلى

البراعة والمعجزات وإنما تحتاج تفسيرًا صحيحًا للإشارات المتتالية التي تعترضنا طوال اليوم منذ الصباح وحتى المساء، أعرف أن امتلاك الأشياء قد يصبح لعنة على الإنسان فأرضنا كادت أن تتشب حربًا بيننا وبين أولاد عمومتنا، هؤلاء الذين كنا في العيد الماضي نقبلهم ونضحك معهم وندافع عنهم ويدافعون عنا ضد الغرباء.. أعرف أن جارنا ما زال يكرهنا ولا يرمي علينا السلام منذ أكثر من عشر سنوات فقط من أجل شجرة زيتون صغيرة لم تثمر إلا مرة واحدة ثم اقتلعها عمال (البلدية) بالخطأ ولم يقدموا مقابل ذلك سوى الاعتذار، أعرف أنني قرأت كل الكتب المقدسة بحثًا عن الله ولم أجده لكنني أعزي نفسي بأملٍ فضفاض أنه سيجدني يومًا، أعرف أنني كنت أحلم أن أصبح نبيًا بينما أصدقائي يحلمون أن يصبحوا أطباءً ومهندسين ورواد فضاء، أعرف أنني أجالسك الآن وأحدثك وأسألك لأن كل معاركي التي ذكرتها لم تثمر وما زلت وحيدًا أكرر المشاعر نفسها، مشاعر يعاقبني عليها جسدي منذ أكثر من عشرين عامًا!!

يحل صمت طويل ليقطعه الصوت الغريب بقوله:

"لم يعد هناك ما يشير لأي شيء أو أي ذكرى أو أي خطأ أو صواب قمت به فماضيك الآن لوحة مزيفة لا تستحق إلا الحرق أو الرمي والإهمال فأنت لست سوى طفل نقي الآن تسبح

في كونٍ من النسيان، ستصرخ: "آآآآآه ما أجمل النسيان!!" بريء بريء بريء!! أنت وكل من حاربت وهَزمتَ وهُزمت أمامه، أنت وكل من ضاجعت وحزنت وفرحت معه.. بريء.. بريء.. بريء.. لكنك اليوم لن تشكر أحدًا سواي، أنا الذي سأمنحك المغفرة بالنسيان وننسى معًا كل الإهانات والأوجاع والأطماع والشهوات، سننتصر على كل شيء بالانسحاب فلم يعد لك أي شيء لتعود إليه فكل الحبيبات يتمددن في أسرّة أخرى وكل الظالمين ظُلموا وكل المظلومين تجرعوا كأسك، كأس البراءة والنسيان.. أنت اليوم حرٌّ من كل شيء، أنت الآن عاشق يا صديقي وكل هذا الكون حبيبة مخلصة لا تخون!!

❖ ❖ ❖

علينا أن ندون كل هذه الحوارات يا غريب وعلينا أن نكتب كل شيء -كما أخبرتني - منذ البداية،

يا لها من شيء عظيم تلك الكتابة!! الكتابة هي مفتاح لماضٍ تملأه الخبرة والحكمة والحكايات فأجمل الكتب تلك التي تتحدث عن تجارب الآخرين وآلامهم وسعادتهم وأيضًا هناك الكتب التي تتحدث عن آراء الآخرين في جميع مجالات الحياة وتشعر عند قراءتها أنك صديق ذاك العالم أو الفيلسوف وأنك

تعرفه جيدًا.. تحاوره وتسأله ليجيبك فتشعر بأنك لن تكون بعد اليوم عبدًا لتجربة واحدة فقط

كما أنه لزامًا علينا يا غريب أن نكتب قصصنا وتجاربنا أو أن نرويها لمن يستطيع حفظها في الورق،

فعندما نعود سنروي لمن يود الاستماع وسنحكي عن الغربة والحنين.. عن الخوف والاشتياق اللعين، سنحكي عن التعود والتأقلم وسنشرح لهم عن قدرة الإنسان على التغير والتلون كالحرباء.. سنقول لهم مهما تعودنا لم نكن في تلك البلاد البعيدة سوى غرباء لكننا لن نروي أسباب السفر فحربنا كالوجه الآخر للقمر؛ بشعة.. قذرة.. سوداء،

مات المئات من أجل لا شيء، لا فخر في قتال الأقرباء فلقد قُتل الحق في أول رصاصة ورغم روايات البطولة والشرف لن يذكر التاريخ لنا سوى سيول الدم والأشلاء، سنصرخ: "عذرًا يا وطني الصغير، يا من بصقتنا للعالم كي يرى حقيقتنا ويعرف كم كنا أغبياء."

❖ ❖ ❖

يعود إلى منزله مع غروب الشمس وهو مشبع بأشياء كثيرة لا يعرف ماهيتها.. يتذكر حبيبته أو الفتاة التي كانت حبيبته

فكل مكان في هذه المدينة الكبيرة يذكره بها.. يسمع الصوت الغريب وهو يهمس له: "الغروب قصة لا ترويها شفتان كما لا تصفق يد واحدة فالغروب يروى بقبلةٍ طويلة ولذيذة حد الجنون والتمرد على واقع الأبنية العالية والدخان."

- صحيح.. يحدث نفسه قائلًا: هذه الذكريات اللعينة ستبقى كحبلٍ سريٍّ يشدني إلى حبٍّ قديم لن أصل إليه بعد الآن.. إنها عقابي الأبدي على ذنوبٍ لا أعرفها!!

يصل إلى المنزل ويجلس على السرير منهكًا فيقع نظره على رزمة أوراقٍ بيضاء لينقض عليها ويكتب..

إن هذه الشوارع كقلبي..
لا تخلو من المارة..
من القادمين والعائدين..
من الساكنين والمارقين..

إن هذه الشوارع لا تنسى..
خطوات العاشقين..
لكلّ قبلة أخذت..
هناك زهرة تنمو بين فجوات الرصيف
في بقعة الطين..

لهذه الشوارع أرواح..

ترقص في الليل..

على أضواء القناديل..

عندما تهدأ شهوات الآخرين..

عندما يضع جندي سلاحه جانبًا..

عندما يغلق مسرح الدنيا..

وتعود إلى أوكارها..

كل الآلهة والشياطين..

❖ ❖ ❖

يجلـس وحيـدًا في الليـل ويشـعل (اللابتـوب) ثـم يـدخل إلى حسـابه علـى الفيس بـوك فيشـاهد أحـد الفيـديوهات الـتي انتشـرت كـثيرًا في الآونـة الأخيرة، إنـه فيـديو لفتـاة سـورية في ألمانيـا كانـت قـد خلعـت حجـاب رأسـها علـى الهـواء مباشـرة وأعلنـت أنهـا بعـد اليوم لن تكون مستضعفة أو كما يقال: ناقصة عقل ودين!!

-أتبحث عني؟

-هه.. كيف عرفت؟

-أشتم رائحة الحيرة والأسئلة على لسانك.

-صحيح.. دعني أسألك: من ظلم المرأة يا غريب؟

-ماذا تقصد لم أفهم؟!!

-أقصـد يـا غريـب، مـن ظلـم المـرأة بلعنـة غشـاء البكـارة هـذا؟ هـل يعقـل يـا غريـب أنـني أسـتطيع أن أضـاجع كـل مـا يحلـو لـي مـن نسـاء قبـل الـزواج ثـم أتـزوج ولا أحـد يعلـم بشـيء ثـم يـذهب الأمـر وينسـى ككـل الـذكريات أمـا المـرأة فـلا حـق لهـا بتلـك المتعـة؟! مـن قـرر هـذا الأمـر؟ مـا هـذه اللعنـة الغريبـة؟ مـن ظلـم المـرأة يـا غريـب؟ المجتمـع؟! الـذكر؟! أم هـو اللّه؟! علـى مـن يتوجـب عليهـا

أن تحقد وتثور؟! إذا كانت مؤمنة فإنها سترضخ لقناعة قديمة.. أن الله لا يريد لها سوى الخير، وإذا كانت متدينة فسترضخ للذكر بحكم التعاليم الدينية التي يسنها الذكور.. أما المجتمع فهو الملعون أزلًا وأبدًا يا غريب، إنهم يلعنون المجتمع وكأنه كيان خارجي نزل من السماء أو أنه إحدى ألعاب القدر التي لا دخل لنا بها.. المرأة ملعونة ومهانة ومسجونة بالتقاليد والشرائع لكنني لا أستطيع حتى أن أشفق عليها يا غريب،

فهي عبد بالاختيار وليس بالإجبار فكم من مرة خضت مشاجرات مع نساء يدافعن عن الجلاد ويتهمونني بالفسق والكفر لأنني كشفت الغطاء عن بشاعة الحقيقة وأخبرتهن بأنهن لسن سلعة للبيع.. لسن (عورة) وأنه لا يحق لأحد أن يحرمهن التزين والاستمتاع بالجمال.

-دعني من المرأة وحماقاتها ولأحدثك قليلًا عن أصناف البشر في مجتمعاتكم اللطيفة فلربما ستعرف أن مشكلة المرأة هي أبسط ما لديكم من مشكلات، سأصف لك بعض الأصناف من الناس أيها الصديق الجديد.. الأنذال مثلًا هم أشخاص يستيقظون في الصباح كباقي الناس، ينظرون إلى أنفسهم في المرآة ويغسلون وجوههم ويذهبون إلى أعمالهم.. يحبون ويتزوجون.. يضحكون ويصاحبون كأي أحمر آخر، لن

تستطيع أن تميزهم فإنهم يضيعون في زحام الأنواع لكنهم لا يحتملون الاختفاء طويلًا

وهنا تعرفهم، في موقفٍ واحدٍ ينقلب كل ما في دواخلهم من أنانية ليمتلئ قلبك نحوهم بالفراغ، لن تشعر بعد ذلك بشيء سوى الخذلان

فالأنذال سيخذلونك.. سأخبرك عن صنفٍ آخر،

بعض الناس فاشلين لم يفلحوا في الدراسة أو العمل ويشعرون بأنهم منبوذون ومعزولون عن المجتمع.. لا أهمية لهم ولا حبَّ لهم، الرغبة بالقيمة تجتاحهم ليل نهار ويودون لو يمتلكون الكون كله بين أيديهم كي يعتصرونه حتى آخر قطرة دم وذرة تراب وقطرة ماء أو يسجنونه في قفص احتياجه لهم.. في قفص الجهل المحكم والتخلف المزمن كي يسودوا بنفاقهم وألاعيبهم الشريرة كل ما في ذلك القفص من عقولٍ نضرة وأجسادٍ شابة وقوية، طريقهم الوحيد إلى كل ذلك المشاعر النقية البريئة لكثيرٍ من الناس البسطاء.. القلوب المشتاقة للراحة والإيمان.. الخوف المتأصل في داخل الإنسان..

هؤلاء يا عزيزي تدعونهم (الشيوخ) وهناك صنف آخر أيضًا، هؤلاء الذين يخافون الحياة ويخشون الحب والجنس والتدخل في أي شيء، كل شيء يأتي إليهم بسهولةٍ كبيرة دون أي عناء ويصمون آذانهم عن السمع ويمسكون لسانهم عن إبداء

رأيهـم، يـودون لـو أنهـم يبقـون علـى الهـامش وألا يكونـون يومًـا موضـوعًا للنقـاش فأغلـب هـؤلاء تجـدهم ذوي خـبرة كـبيرة بـالكمبيوتر والإنترنـت فهنـاك يقضـون أوقـاتهم ويتجسسـون علـى الآخرين.. يشاهدون الحياة وتعجبهم لكنهم

لا يـدخلونها أبـدًا وعنـدما تسـتفزهم وتصـرّ علـى أن تعـرف رأيهـم بـأمرٍ مـا أو تـدعوهم إلى التصـرف بشـأن أمـرٍ مـا ينفجـرون ويخـرج كـل مـا في دواخلـهم مـن كبـتٍ وحرمـان.. يخـرج عليـك بهيئة الغضب، هؤلاء يا صديقي هم الجبناء.

-هه فعلًا.. ما عساي أقول.. هذا الواقع فعلًا!!

-وعندي لك أيضًا صنف آخر سيعجبك بالتأكيد.

-تفضل لنسمع.

-هنـاك يـا صـديقي نـوع متواجـد بشـكلٍ واسـعٍ وفي كـلا الجنسـين (الـذكور والإنـاث) هـؤلاء الـذين يـدعون الرجولـة والأنوثـة الزائـدة فـبعض الرجـال يتحـدثون دائمًـا عـن بطـولاتهم والرعـب الـذي يزرعونـه في قلوب الآخـرين.. البطـل منهم دائمًـا مـا يـأتي بعـد فـوات الأوان ليقـول لـك: "لـو كنـت مكانـك لفعلـت كـذا وكـذا.. لقلـت كـذا.. آآآآآخ فقـط لـو كنـت مكانـك." ثـم يبـدأ بروايتـه الخاصـة ويحكـي أنـه يومًـا مـا تعـرض لـنفس الموقـف وأنـه كـان مثالًـا للرجولـة والبطولـة، قلت لـه كـذا وفعلت معـه كـذا! ويرفقهـا بابتسـامة الاعتـزاز وهنـاك الفتـاة اللطيفـة المرسـومة بريشـة فنـان

عبقـري.. كـل شـيء فيهـا يشـتهى.. صـوتها نـاعم وخجـول.. حركاتها مدروسة وكل شيء تقوم به على (الإيتيكيت) لكن يا سيدي إذا ما أحببتها حدّ العبادة وتأكدت من حبك الأبدي، عندها يا سيدي أقسم لك لن ينقصها إلا الشارب والعضلات وستصبح أقسى من القسوة ذاتها فتصرخ كالمحاربين القدماء وتنظر إليك كشيطان.. كل جمالها يموت بلحظة غضب، هؤلاء هم أغلب البشر يا صديقي! هؤلاء هم المنافقون!!

-دقيق كلامك يا غريب، الناس في هذه الأيام وربما منذ القدم مقسومة إلى قسمين:

الأول يعمل بالمبادئ والثاني ينادي بها ويا له من فرقٍ شاسعٍ بين القسمين!! فكم من أشخاصٍ قابلتهم كانوا يشبهون (تشي غيفارا) و(أنطون) سعادة بأقوالهم.. كانوا يثورون ويتعرقون.. يغضبون ويعلو صراخهم عندما يتحدثون عن المبادئ لكنهم في الحقيقة كالوعود الأمريكية وقلق (بان كيمون) حبر على ورقٍ مهترئ،

وكم من آخرين عملوا بتلك المبادئ مكللين بصمتهم الوقور.. صابرين على عواقب أفعالهم النبيلة، لا تهمني نوعية المبادئ يا غريب لكنني أحزن حتى يندى قلبي بالدموع عندما أرى العظماء يصبحون ضحية لعظمتهم والمخادعين ينعمون بإرثهم الكبير ثم يهدمونه بالكذب والرياء، أحياناً أشعر برغبةٍ

هائلة بالصراخ في وجه هذا العالم الزائف، رغبة بشتمه ونعته بأقذر الأوصاف.. رغبة بتوجيه ضربة قاضية للوجود لينتهي كل هذا الزيف لأعرف أحقًا هناك عالم آخر سيلي هذه البشاعة التي اسمها حياة؟!!!

يحل الصمت وينظر حوله ليجد نفسه وحيدًا.. يبتسم باستهزاء ويحدث نفسه قائلًا: "يبدو أنني أتعبتك يا غريب، اذهب واسترح في مكانٍ ما من هذا العالم الكبير وغدًا سنكمل بالتأكيد." ثم يلجأ إلى فراشه الصغير ويغرق في نومٍ عميق.

# الفصل الرابع

الوقتُ يسرق كل شيء..
إلا أنتِ..
يجعلني بيدقًا في لعبته..
يعجل في لذتي..
يتمهل في ألمي..
وينثر على طول الطريق..
بقايا ذكريات..

صوتُ الغريب ـــــــ

في البداية.. عندما وصلت إلى اسطنبول كان كل شيء غريبًا وجميلًا!! كنت أتجنب التجول كثيرًا والشراء من المحال التركية (وساعدني تواجد محال سورية في أماكن قريبة علينا) والسبب أنني صدمت بغرابة اللغة التركية.. كلماتها أغلبها عربية لكن اللفظ المختلف لا يساعدك أبدًا على فهم المعنى فعندما يقول لك: (ميرابا).. ترتبك ولا تعرف بماذا ستجيب؟ رغم أنها كلمة عربية وتعني (مرحبًا) لكن شيئًا فشيئًا تعتاد الأمر وتفهم الكلمات وتتحول الغرابة إلى اعتيادٍ قبيح.. كل الجمال يزول عندما نعتاد!!

شيء آخر أثار حفيظتنا أنا وأصدقائي، عادة من كثيرٍ من العادات الغريبة في اسطنبول فالفتيات هنا لا ينزعون الشعر عن أجسادهن وأحيانًا يكون طويلًا لدرجةٍ مقززة.. كان أمرًا لا يحتمل أن تكون الفتاة جميلة جدًا لكن الشعر يملأ ساعديها ووجهها وصدرها أحيانًا، كرهت النظر إلى الفتيات في اسطنبول..

عـادة أخـرى بـدت غريبـة لنـا وهـي طريقـة المصـافحة عنـد الرجـال مـن الأتـراك فلقـد كـانوا يتـاطحون كـالثيران بينمـا كنـا نصـافح باليـد فقـط علـى مـن لا نعرفـه ونقبـل خـدي وكتفـي مـن نعرفه، أحببت مصافحتهم أكثر..

الطعام التركي يشبه إلى حدٍّ كبيرٍ طعامنا لكنه

بـلا نكهـة.. بـلا طعـم.. غريـب أنهـم يضـعون البهـارات الكـثيرة ولا يظهـر الطعـم فلقـد أحببـت أناقـة الشـكل في طعـامهم لكـنني كنـت أفضـل أن أتنـاول غـداء العطلـة في المطـاعم السـورية فطعامنـا أشهى.

يعمل الأتراك لساعاتٍ طويلةٍ جداً حتى كأنهم

لا يشـعرون بالوقـت وتمـر الحيـاة كعـابر سـبيلٍ مـن اسـطنبول.. لا أحد يكرمها أو يستمتع بها فالحياة هنا مرهقة.

**الذكرى (3)**

في غفلـةٍ مـني سُـرق كـل شـيء.. أذكـر أنـني كنـت في غـرفتي أتقلـب علـى جمـر الانتظـار وأسمـع الخطـوات في الممـر علّـني أميـز خطواتهـا، كانـت لحظـات لا تنتهـي.. عمـر كامـل يمـر وأنـا أنتظرهـا لكنهـا أتـت ودخلـت بسـرعة خوفـاً أن يراهـا أحـد ثـم أغلقـت البـاب بالمفتـاح ونظـرت في عـينيّ، حينهـا لم أتحـرك.. فقـط

أغمضـت عـينيّ ومَـلأتُ صـدري برائحـة عطرهـا العـذب الـذي كنـت أعشـقه، قالـت كعادتهـا: "لـيس معـي كـثير مـن الوقـت."

قلـت: "لا تقلقـي لـن أؤخـرك.. سـأغرق روحـي بسـرعة في وجـودك الكـبير.. سأضـيع بسـرعة في تفاصـيل حضـورك الآسـر.. سـأنتهي مـن كـل شـيء بالسـرعة القصـوى إلا شـوقي لـكِ سـيبقى مشـتعلاً ليحرق ما تبقى مني على مهلٍ لأتألم أكثر."

قالـت: "يـرهقني اشـتياقك الـذي لا ينتهـي وأشـعر بالـذنب لأنني لا أستطيع الحضور أكثر."

قلت: "يكفيني أن أختصر الزمن بأزليته في قبلةٍ طويلة."

طوقـت وجههـا بيـدي وقبلتهـا حتـى تعبـت هـي وابتعـدت ثـم عـادت فطوقـت جسـدها وشممتهـا ثـم سمعـت صـوت أزرار قميصـها تفـتح الأبـواب فعرفـت بأنهـا بدايـة النهايـة وأنـني الآن سـألتهمها بـلا مشـاعر.. وضـعت حبهـا علـى الطاولـة وسـلمت نفسـي لشـهوةٍ لا تنتهـي، قبلتهـا في كـل الأمـاكن، رويـت جـوعي مـن رحيـق شـفتيها تارة.. ومن نبع العسل اللذيذ بين فخذيها تارة أخرى..

شهقت وتنهدت فكان وجهها أجمل وجه في تاريخ الجمال..

-أووو.. كـان صـوتك مرتفـع وأنـت تـروي لـي تلـك الذكرى.. (يضحك)

-لا تقلق يا غريب.. الأتراك لا يفهمون لغتنا.. هذا أولًا، وثانيًا أنا أضع سماعات الأذن كي يظنوا بأنني أتحدث عبر الهاتف.

-هاااا جيد. أنا لا يهمني الناس كما تعرف.

-الشهوة يا غريب كالنهر الجاري.. كالنهر الذي

لا يوقفه إلا سدٌ واحدٌ وهو أن تقضيها.. سدٌ لن يصمد طويلًا وستحتاج إلى بنائه من جديد ولكن عندما تقضيها تشعر بأنك تحررت من كل الأغلال كأنك بلا وزن ومستعد للطيران.. تتقلب على ظهرك وتغمض عينيك ويسافر عقلك إلى كل مكان.. ليس حرًا من كان بلا شهوة بل إن الحر هو من قضى شهوته وتهيأ لها من جديد.

- وهل قضيت شهوتك هنا أم أنها ذكريات بعيدة؟

-شيء من هذا القبيل.

-أخبرني.

-عندما أتت تلك الجميلة إلى اسطنبول شعرت بأن الكون يحتضنني ويربت على رأسي كالأم ويقول لي: "لن تحزن بعد اليوم."

أيامنا كانت تجري كالهارب من الموت، سريعة جدًا وكانت جميلتي توثق كل شيء بالصور والفيديو، لم أعتقد يومًا أنني كنت في حساباتها مجرد تجربة عابرة موثقة ومثبتة

لكنني أسأل نفسي اليوم لو أنني امتلكت الفرصة لأعرف ذلك قبل أن ألتقيها، فهل كنت سأرفض كل تلك المتعة والسعادة التي شعرت بها؟

لا أعتقد فالإنسان مستعد أحياناً أن يضحي بكل شيء مقابل لحظات من السعادة المؤقتة، فهو بطبعه باحث عتيق عن ذلك الكنز الثمين فكم من كتابٍ كُتب ليشرح لك ما هو ذلك الكنز وكيف تحصل عليه.. كل كاتب كان يحاول أن يجد سعادته بينما يكتب لنا عن كيفية إيجاد السعادة.. أحياناً يأتيني صوت فيروز منبعثاً من أحد الهواتف في المنزل وهي تقول: "بقولوا الوقت بيقتل الحب.. بقولوا الحب بيقتل الوقت."

أحدث نفسي قائلاً: "من يقتل من؟.. لا يهم.. المهم هو تلك العداوة القديمة التي لا تنتهي بين الحب والوقت، هل فعلاً أحدهما سيقتل الآخر يوماً؟

أيضاً لا أعتقد فمعارك كهذه لا تنتهي كالحنين إلى الماضي الذي يكون دائماً في نظرنا أجمل من الحاضر..

❖ ❖ ❖

يحاصرني فضول غريب.. أفكر دائماً ما الذي يفعله الآن شخص ما في الأردن أو في لبنان؟ في مصر أو في تونس ربما؟ ما

الـذي يفعلـه زملائـي في العمـل عنـدما أكـون غائبًـا؟ مـا الـذي تفكـر بـه الآن أول فتـاة أحببتهـا؟ وهـل أحببتهـا حقًـا؟ مـا الـذي يشـغل بـال أخـي الكـبير؟ أيـن أخـي الصـغير؟ مـاذا تطـبخ أمـي؟ وكيـف يقضـي الـرئيس الأمريكـي يومـه؟ أشـعر بالغرابـة لكـنني محاصـر بتلـك الأسـئلة العجيبـة.. أحيانًـا أفكـر، أي الآلهـة سـيختار اليـوم ذلـك الهنـدي ليقـدم لـه الهـدايا؟ مـاذا سـيطلب منـه؟ هـل يقضـي (الـدالاي لامـا) حاجتـه في حمـام خـاص أم يشـارك الرهبـان نفـس الحمـام؟ هـل كـان هتلـر يكـره اليهـود لأنـه استشـعر خطـرهم فعلًـا أم أن أفعالـه كانـت مجـرد رد فعـل علـى خيانـة حبيبـة يهوديـة مثلًـا؟!! هـل يتـذكرنني حبيبـاتي السـابقات أم أنـني تحـررت مـن ذاكـراتهن إلى الأبـد؟! هـل يعـرف (جـاكي شـان) كيـف يمـارس الجنس أم أنـه قضـى وقتـه في الكاراتيـه ونسـي أن يـتعلم ذلـك؟ هـل يصـدق الغبي الـذي يحـذف مقـاطع الجـنس مـن الأفـلام ويشـوه قصـة الفيلم، بأنه فعلًا يحمي المجتمع من الانحراف والرذيلة؟!!

تراودنـي هـذه الأسـئلة يـا غريـب عنـدما أكـون وحيـدًا، هـل هذا الأمر طبيعي أم أنني جننت؟!!

-لا أعتقد ذلك.. لا ليس جنونًا لكنه الفراغ!!

-تقصد أنني أشعر بالملل وأن حياتي فارغة؟!!

-ربما نعم هذا هو السبب.

-وما الحل؟

-دعك من التفكير بالآخرين ولنتحدث عنك.. مثلًا ما كان دورك في الأحداث التي جرت في بلدك ودفعتك إلى الخروج منها؟

-لم يكن لي دور أبدًا.. غريب ها؟

-نعم غريب.

-فعلًا لم أفكر يومًا أن أشترك بأي نشاط مؤيد أو معارض.. كانت تراودني أفكار وبعض التحليلات لكنها لم تثمر يومًا لتنتج أفعالًا.

-والعسكر؟ ألم تصطدم معهم أبدًا؟

-أهانني العسكر يومًا بسبب فتاة أحببتها وكانت مدعومة منهم.. كنت قد جرحتها بكلمة بعد أن خانتني مع رجل آخر، لم تتقبل الأمر لأنه كما قال لي أحد الأصدقاء يومًا: "العاهرة لا تحتمل مواجهة الحقيقة، لا يمكنك ببساطة أن تقول لها أنت عاهرة! حتى لو كانت تعرف ذلك."

لكنني يا غريب أتذكر ذلك اليوم كأمرٍ عادي بل أحيانًا أعتبر نفسي المنتصر.. لم يكن ذلك اليوم بشعًا بقدر اليوم الذي استمتعت فيه برؤية شخصٍ ما يُسبّ ويصفع أمامي من قبل نفس العسكر لأنه فقط لم يقدم الخدمة الجيدة لنفس الفتاة!! كان شخصًا لا أحبه وكنت قد قصدته يومًا بخدمةٍ ما فلم يجبني فكرهته، إنني اليوم أحتقر نفسي لأنني ضحكت وسررت لما

فعلوه بل ربما أثنيت على فعلتهم.. كنت مجردًا من إنسانيتي في تلك اللحظة ومليئًا بالأنانية والحمق وقد قرأت يومًا تعليقًا لإحدى القارئات على أحد الكتب، اقشعر له بدني وأحسست بأنها تنظر إليّ وهي تكتبه.. تنظر بعين المعاتب وربما بعين المشمئز، تقول فيه: "شعرة واهية فقط بين أن تكون المجني عليه، أو أن تكون نسخة من جلادك!! نحن لا نشعر بالآخرين إلا المقربين منهم.. ربما نحزن لحزن حبيب أو أخ أو أم لكن أبدًا مهما حاولنا أن نعتصر أنفسنا لن نذرف دمعة صادقة لأجل الآخرين غير المقربين وحتى لو ذرفناها فتلك الدمعة ستكون كل ما نستطيع تقديمه ولن نفعل أكثر..

❖ ❖ ❖

**الذكرى (4)**

أتذكر كثيرًا تلك الفتاة اللطيفة التي قدمت بعد حرمانٍ جنسيٍ طويل.. كانت ترتدي النقاب ولا يبدو منها إلا عينيها، فتلك العينان كافيتان لتسحرني وتسقطني في شباك اشتهائي لها. ولقد كانت ترافقها أمها وهذا الأمر لم يشكل لي عائقًا فيما سبق حيث أن لي أساليبي في تصريف المرافقين.

في جلسة العلاج أخذت تتألم، كنا وحيدين بمفردنا تحيط بنا الرغبة فقط. أمسكت يدها لأبث بداخلها الاطمئنان، فشدّت على يدي وخُيل لي أن عينيها تحدثني، قالت لي: "أريدك." نعم سمعت تلك الكلمة بمشاعري كما يسمع البعض صوت الله، أمرٌ جنوني ربما لكنه يبدو لي حقيقيًا في لحظته، أخبرتها أن تنزع الغطاء عن وجهها ليسهل عليها التنفس، بعد أن فعلت أسفرت عن شفتين كانتا هما الأجمل، أجمل ما رأى ناظريّ نضارةً واشتهاءً، لم أطق الانتظار أكثر. شعورٌ ما يدفعني إلى الجنون وإلى نيلها بسرعة، ذهبت إلى أمها وأخبرتها بضرورة الحصول على توقيع المدير على أوراقها ليكون علاجها بالمجان، عندما ذهبت وجدت الطريق مُشرعًا إليها، إلى بئر ملذاتي. انقضضت على شفتيها دون مقدمات، دون أن أنبس ببنت شفة فخافت، قالت لي وهي تتمنع: "أمي" قلت: "ذهبت" لاذ بها الصمت بعد ذلك، بين بريق عينيها وصراخ أحاسيسها وأنفاسها، كانت بصمتٍ تناديني إلا أن حياءها أجبرها على التمنع وإزاحة رأسها يمينًا وشمالًا، أمسكت يديها بقوةٍ وثبتها ثم بدأت تسترخي، بدأت تتيح لدمائها وروحها بالانفراج، استسلمت بين ذراعيّ. فأخذت شفتيها بين شفتيّ ورحت ألتهمها بشغفٍ كبيرٍ كوجبةٍ دسمة أنولها بعد طول انتظار.. كنت

جائعًا جدًا وفجأة أحسست بيدها تمتد لتحتضن ذكري فقلت لها: "تريدينه؟"

أجابت: "نعم."

- ماذا ستفعلين إذا أخرجته؟

- سآكله.

تلك الكلمة فقط كانت كافية لتشعلني، نفضنا ثيابنا عنا أو هي التي نفضتنا فامتزجت أرواحنا وأجسادنا، راحت تمتص رحيق شغفي لتستلذ به حد الاختناق بالرغم من محاولة إحجامي عن تفجير مياه نشوتي بين فكيها لكنها أبت إلا ذلك.. راحت تسحب مني ما تستطيع أن تسحبه، تسحبه بإخلاصٍ منقطع النظير حتى ضج المكان بآهاتنا.. عندما انتهى كل شيء كانت زاهرة الوجه، يطفح الجمال على وجنتيها كبقعة حبٍ ولدت للتو من رحم الخوف، لم أستطع ساعتها إلا أن أقول لها كتعبيرٍ عن شكري العميق: "أحبك "!!

❖ ❖ ❖

هل تعلم يا غريب أنني أحيانًا أفضل تلك العلاقات العابرة لأنني في نهاية كل علاقة حب أصاب بخللٍ ما في المشاعر وكل ما كانت العلاقة أقوى كان الخلل أكبر وأعمق.. كل ما

أحسست بوجود الخلل جلست مع نفسي لأبحث عن مكان الخلل وكيفية إصلاحه ويأخذ مني الأمر وقتًا طويلًا، إلى أن ألتقي بفتاة أخرى وأدخل علاقة جديدة فأنسى أمر الخلل

لكن الأمر لا ينتهي هنا فأنا كمريض يدفن مرضه في العمق مستعينًا بمسكنات الألم!! لا يلبث ذلك الخلل أن يطفو على السطح ويفضح حماقتي عندما تنتهي علاقتي الجديدة.. الحل الجذري لمشكلتي لم أعرفه بعد، إنني فقط أدحرج الهمّ أمامي على أمل أن يسبقني فلا يمكنني اللحاق به لكنه همي وأعرفه.. بطيء كعادته ولا شيء يبعده!! قلت لإحداهن يومًا: "أنا شاعرٌ يا عزيزتي." قالت: "وماذا يعني ذلك؟" قلت: "يعني ثلاثة أشياء يجب أن تعلميها." أولًا: الشاعر لا يتأثر بالهجر، فهو كالطائر الحر، إن فتحت له باب القفص طار إلى غير رجعة.. وثانيًا: لا يمكن لك أن تخوني شاعرًا، وإن حدث وفعلت فاعلمي أن كل القصائد التي كتبت لك، أصبحت لحبيبة أخرى.. وثالثًا: الشاعر مخلص حد الجنون لمن يحبها فإن أحبك أصبح قلمك الذي

لا ينضب حبره وأزهارك التي تتفتح كل يوم، وصباحك المشمس إلى الأبد.

كنت أكذب يا غريب.. فأنا لا أذهب من فتاة إلى أخرى بهذه البساطة ولا أستطيع أن أعاقب من خانتني فأنا أعاقب

نفسي فقط لأنني وثقت بها وأخاف أحيانًا أن أصاب بعقدة دائمة من النساء وخوفي يجعلني أرفض فكرة عقاب النفس وأعود لأثق وأخذل من جديد..

# الفصل الخامس

الصمت هو الصديق الوحيد الذي لا يخونك أبدًا.

(كونفوشيوس)

صوتُ الغريب ـــــــ

إنــه وقـت الظهـيرة ، وقتــه المفضـل فلقـد أراد أن يجلـس وحيـدًا يتأمـل أي شــيء.. كأسًـا أو كرسـيًا أو ينظـر مـن النافـذة إلى ذلـك العـالم بصـمت فإنـه وقـت صـمته المقـدس.. لم يأتـه الصـوت الغريـب وكأنـه شـعر بحاجتـه واحـترم تلـك الحاجـة!! يجلـس كقـطٍ أليـفٍ في مكــانٍ دافــئ.. يغفــو قليلًــا ويصــحو لا يشــعر بشــيء ولا حتــى بأقل درجـات الرغبـة ، كـان حـرًا تمامًـا مـن كل شـيء فلم يفكـر لا ببلـده ولا بعائلتـه ولا بعملـه ولا بـالله!! فـراغٌ كـبيرٌ يمـلأ روحـه.. فـراغٌ لذيـذٌ تمنـى لـو قضـى عمـرًا في أحضـان ذلـك الشـعور العظـيم ، إنــه كمتصــوفٍ خــبيرٍ يبحــر في ذاتــه الكــبرى ويعــزف بمشــاعره ألحــان الوجـود كلـه! لطالمـا تسـاءل عـن التجـارب الروحيـة.. كيـف تحـدث وبمـاذا يشـعر أصـحابها؟ لا يعلـم إن كـان مـا يشـعر بـه الآن هــو تجربــة روحيــة أو شــيء آخـر لكنــه شـعور عميـق إلى درجـة اعتقـاده أنـه مـن المسـتحيل لـذلك الشعور أن يكـون أرضـيًا ، لا بـد أنه من مكانٍ بعيد جدًا يسافر إلى مكانٍ آخر مرورًا بجسده!!

يســتطيع الآن أن يكتــب مئــات الكتــب المقدســة في هــذه اللحظـات لكنـه لا يمتلـك براعـة اسـتخدام الكلمـات.. فكـر أنـه

ربما كان نبيًا خانه انتخاب الطبيعة فوجد في زمنٍ ما عادت تنفع معه المعجزات!!

عادت إليه الذكريات في ظهيرة أحد الأيام وكانت ظهيرة رائعة.. كان يتمدد على سريره مستمتعًا بالسكون وبحركة أغصان شجرة العنب، كانت تتراقص في هواء دافئ ولطيف.. فجأة ظهرت من خلف الأغصان جارته الجميلة التي وقفت على شرفة المنزل تُسرِّح شعرها بيديها وكأنها مشبعة بالملل، نظر جيدًا فرأى أنها ترتدي ثوبًا قصيرًا جدًّا يتطاير في الهواء! لقد كانت متأكدة أن كل من في الحي نيام فهذا الجو اللطيف يجتذب النعاس بشدة.. كانت رائعة الجمال بذلك الثوب الكريم الذي ينزاح بسهولة كلما هبت نسمة بسيطة ليظهر مفاتن فخذيها وأحيانًا تكون النسمة أقوى فيظهر سروالها الداخلي الأبيض الذي نقشت عليه زهور حمراء، بدت له أنها أشهى أزهار العالم كله! كان يغمض عينيه لدقائق فيشتم رائحة تلك الزهور مختلطة برائحة أنوثتها الثائرة.. اشتهى لو ينقض على تلك الزهور فيقبلها زهرة زهرة، لم يستطع احتمال الأمر أكثر فخرج إلى الشرفة بسرعة لتفاجأ به الجارة الحسناء التي ألقي عليها التحية فردت مع ابتسامة لطيفة جدًّا لكنها لم تتحرك بل بقيت على حالها تراقب اشتعاله وتبتسم بين الفينة والأخرى، حدث نفسه قائلًا: "ليته يتفجر كل هذا العهر

المنتصب في عينيها وبين فخذيها لتتالى منه زهرة أو حلمة أو قبلة!!" ثم استيقظ من حلمه العذب على كلمات الصوت الغريب وهو يقول له: "حلمٌ جميل.. ترى ما الذي يفعله ذلك الجسد اللطيف الآن؟"

-أنت من جديد، لماذا لم تتركني أستمتع بتلك الذكرى؟ دائمًا تقتحم الأجواء وتفسد اللحظات الجميلة.

-لأنك أناني.. قلت لك أريد أن أعرف كل شيء، كان بيننا اتفاق، هل نسيته؟

-لم أنسَ.

-إذاً!!

-حسنًا ابقى لنتحدث قليلًا، فهذه الذكريات ترهقني بقدر ما تسعدني.. لا أحبها لأنها لن تتكرر وتصيبني هذه المعرفة بالاكتئاب.

-ربما شعورك هذا سببه اقتراب عيد الحب وأنت لا تزال وحيدًا.

-لا.. لا يفاجئني هذا الأمر فأنا يا غريب لم أحتفل بعيد الحب يومًا، فعلًا لم أفعل!!

أحببت الكثيرات لكنني كنت أهجر حبيبتي أو تهجرني قبل موعد عيد الحب وأتعرف على التي تليها بعد مرور موعد العيد!!

لا أعلم إن كان ذلك حظًا سيئًا أم جيدًا لكنني دائمًا ما كنت أفكر بما سأفعله لو أتى عيد الحب وأنا ما زلت عاشقًا ، لا أعلم حقًا.

-يقول الصوت: السيئ والجيد مفهومان مبهمان.. ما يظهر على أنه جيد للبعض قد يظهر على أنه سيئ للبعض الآخر فهناك عوامل كثيرة قد تؤثر على هذين المفهومين؛ منها الدين والتربية والعادات وثقافات الشعوب.. إذا دققت جيدًا فإن كل جيد سيئ وكل سيئ جيد ، الخير والشر وجهان لعملة واحدة يا صديقي.

-ربما كان كلامك صحيحًا لكن الآن يجب أن أقوم ببعض التمرينات الرياضية كي أحرق تلك الزوائد الدهنية التي تلازمني في منطقة البطن والخاصرة.

-لماذا لا تنزل إلى الشارع لنتمشى قليلًا ونتحدث؟ المشي هو الرياضة الأفضل.

-صحيح، لكنني أكره المشي في شوارع اسطنبول فرائحة الطعام في كل مكان وأنا أضعف دائمًا أمام تلك الشهوة اللعينة ، فأشعر أنني جائع منذ دهر وأريد أن أجرب كل شيء فاشتهاء الطعام كأي اشتهاء آخر يا غريب لا يرحم أبدًا ، إنه لا يشبه الجوع أبدًا بل إنه شيء آخر أكثر قوة!! إنه يشبه إلى حدٍ كبير شهوة الجنس ، قليلون هم الذين يستطيعون

السيطرة على تلك الشهوة.. ربما هذا ما يدفع المتدينين إلى المطالبة بالالتزام بالملابس المحتشمة للنساء ليس خوفًا على النساء بقدر ما هو خوف من أنفسهم، إنهم يخافون من الشهوة التي تتفجر في دواخلهم ويعلمون بأنهم أضعف من تجاهلها أو كبتها لذلك يلجأون إلى أساليب أخرى ربما أسهل وهي أن يزرعوا في عقول المؤمنات منذ الصغر أن الله يريد ذلك وأنه سيحبهن أكثر لو استجابن وسيعاقبهن بشدة لو تمردن.. حجة ربما لم تنطلِ على جميع النساء اللواتي اندهشن أن الله رأى في شعر المرأة أو رقبتها أو ساعديها شيئًا أكثر من مجرد الطين الذي خلقهن منه، اندهشن أن يكترث لشهوة الرجال فيأمر بتغطية النساء وينسى شهوة النساء فيرتدي الرجل ما يحلو له دون عيبٍ أو حرامٍ أو خجل.. هذه المجموعة من النساء دفعت الرجال إلى إطلاق الوحوش الدفينة في دواخلهم، فعمدوا إلى معاقبة النساء المتمردات بأنفسهم متسلحين بفكرة أنهم خلفاء الله على الأرض وأنهم يده التي يضرب بها وهذا ما قد يدفع مهاجرًا متدينًا إلى إحراق شعر فتاة أجنبية في إحدى الدول الأوروبية التي استقبلته بكل رحابة صدر لحمايته من الاضطهاد السياسي في بلده الأصلي، إنه يؤمن أن مشيئة الله أهم من إبداء الامتنان على الجميل الذي قدم إليه من أناس لا يعرف عنهم

سوى أنهم كفار ويستحقون العقاب بيد الله المتمثلة بشخصه العظيم!!

❖ ❖ ❖

**المكان: غرفته.**

**الوقت: قبل النوم بقليل.**

يتجهز لليوم التالي فيغسل شعره من الكريم ويمسح حذاءه ويرتب الملابس التي سوف يرتديها على الكرسي المجاور لسريره، أظافره طويلة إلى حدٍّ لا يطاق.. يتناول مقص الأظافر ويبدأ بقصهم ثم يقول: "هل تعلم بأنني عندما أقص أظافري بعد مدة طويلة أي بعد أن يصبحوا لا يطاقوا، أشعر بأنني أمتلك أصابع جديدة وكذلك الأمر عندما أكون مريضًا ولا أستحم لمدة طويلة كي لا تزداد شدة المرض، فإنني أشعر بروعة الاستحمام وفي لحظتها أكون مستعدًا أن أدفع كل ما أملك مقابل الماء والصابون..

وهكذا يتكرر هذا الشعور لدي في كل شيء حتى يبلغ قلبي فعندما يأتي الحب بعد غياب طويل، أشعر بأن قلبي ينبض لأول مرة وبأنني ولدت في تلك اللحظة بل أحيانًا أشعر بأنني تخلصت من بقايا قلبي الحزين على الدوام وحصلت على قلبٍ

جديد مخلص للفرح والعشق العميقين، هل تعلم كيف يكون الإنسان بلا حب؟!! سأحاول أن أشرح لك.. إنه كزهرة ذابلة في الربيع! يحمل في داخله ذاكرة العطر وبقايا قوس قزح فيتمدد كغصنٍ يابسٍ متعب على فراشه.. يجذبه النوم بإغراءات النسيان لكن النسيان بالنسبة له سر قديم أو خرافة لن يدركها يومًا، هذا أنا اليوم أكتب قصة لا تنتهي من عناء الفراق واللقاء.. أحب بعنفٍ حتى أستنزف أحلامي كلها في امرأةٍ واحدة فلا يبقى لي بعدها إلا السراب فأجلس على أطلال حماقاتي وأندب تاريخًا كاملًا متكررًا من الغباء والخذلان، إنني بقايا الصدى فلقد ضاع صوتي في قصائد تلوتها على مسامع الكثير من النساء وها أنا اليوم أحاول أن أحصي خيبات الأمل والطعنات لكنني أفشل حتى في أن أكون ضحية مثالية فلا أتذكر منهن إلا اللحظات الجميلة وأنسى كل الألم الذي عانيته.. كل الهم والنكد!! فأبكي كخاسرٍ وليس كمظلوم، كلهن عظيمات في ذاكرتي وأنا شيء ما مرّ على ذاكراتهن وانتهى، ربما كنت درسًا أو مكافأة وربما تلاشيت في غياهب النسيان فلا وجود لي حتى في الذاكرة!!

-أين أنت؟

-هنا.

-لماذا لا تقول شيئًا؟

-أحببت أن أستمع إليك لقد تغيرت كثيرًا عن لقائنا الأول وأصبحت أكثر جرأة على الحديث.. ذلك مفيد لك، نعم مفيد.

-اااااه أنا متعب جدًا.. سأنام.

-نم يا صديقي نم.. لا شيء يعالج كسور القلب كالنوم، إنه عدو العاشقين وصديق الخائبين.

❖ ❖ ❖

# الفصل السادس

المبالغــات دائمًــا هــي وســائل فاشــلة للبحــث عــن التــوازن الداخلي.

**(لوتس)**

صوتُ الغريب ـــــــ

نبحث كل يوم عن شيء ما.. هذا ما أخبرت نفسي به أمام المرآة في الصباح ثم غسلت وجهي وارتديت ملابسي وذهبت كالعادة إلى العمل.. على موقف (الباص) كل يوم يجتمع الكثير من الأتراك رجالًا ونساءً كبار وصغار السن فأبدأ بتفحص الوجوه والأجساد ، كل الأجساد جميلة حتى كبار السن منهم لكن الوجوه شاحبة وغريبة فلم أستطع يومًا أن أرى في وجوه الأتراك ما يقربني لهم بل كانوا بالنسبة لي هياكل فارغة بدون مشاعر وأحلام! لا أعلم لماذا كنت متيقنًا أن أحدًا من الواقفين لم يفكر يومًا أن يبحث مثلي في الوجوه عن شيء ما ، إنهم لا يبحثون عن أي شيء.. بهذه البساطة ، إنهم يتحركون فقط كي لا تصدأ أجسادهم ويتكلمون كي لا يضمر لسانهم وهكذا بدوا لي بلا هدف!! يقول السوريون عن الأتراك بأن فهمهم خاطئ للدين لأنهم لا يكرهون المختلف عنهم

ولا يحاسبون الشاذ بنظرات الاشمئزاز والسباب بصوت منخفض كلما مر أمامهم وأنا أوافق السوريين بهذه الفكرة ،

إن كثرة الحروب التي خاضها الأتراك وأمجادهم القديمة التي ما زالت تقبع في كتبهم ومخيلاتهم جعلتهم شعبًا قاسيًا ومنغلقًا على نفسه حتى النساء في تركيا هم أقرب إلى الرجولة منهم إلى الأنوثة ويظهر هذا الشيء في رغبتهم الشديدة بالتشبه بالرجال، إن كان ذلك في طريقة المشي أو الملابس أو إطالة شعر الساعدين!! أو ربما أنني فقط أبالغ قليلًا!!

يصل إلى مكان عمله نفس الشحاذة يجدها كل يوم في نفس المكان، تتوسل باللغة التركية ليعطيها شيئًا من المال فيشعر بأنها تقول له كل صباح: "هذا المال لنا.. من حقنا!! وأنت لا شيء لك هنا! أعطني ما هو لي أساسًا واغرب عن بلدنا أيها المهاجر التعس!!

كل يوم كان يتخيلها تقول ذلك الكلام فيحقد عليها ويرفض حتى أن ينظر إليها لكنه اليوم لم يعلم لِمَ تملكته رغبة شديدة في إعطائها بعض الليرات.. رمى لها ليرتين فابتسمت له وأطالت الدعاء له بينما هو أكمل مسيره دون اكتراث أو هكذا أوحى لها.. شعر لوهلة أنه مرتاح جدًّا كأنه دَينٌ قديم وانزاح عن كاهله، ضميره الهائج دائمًا ارتخى كمريضٍ بالهلوسة أعطي حقنة مهدئة.. حدث نفسه قائلًا وهو يعلم أن الصوت الغريب يسمعه: "كثير من الأعمال الخيرية ليست إلا

تعبيرًا ضمنيًا عن شعورٍ هائلٍ بالذنب." لكنه لم يعرف لماذا كل هذا الذنب الذي يشعر به ومن أجل ماذا؟!!

❖ ❖ ❖

**الذكرى (5)**

كانت متزوجة، رأيت الخاتم في يدها اليسرى لقد علمت ذلك منذ البداية ولم أعلم لماذا لم تمنعني معرفتي تلك من الوقوع في حبها، يداها ناعمتان لحد الطفولة ولعينيها جاذبية الأوطان، لم تكن جميلة جدًا لكنها امتلكت من الجمال ما سمح لها أن تسقطني بالضربة القاضية منذ النظرة الأولى فلقد أحببتها وأحبتني منذ اللقاء الأول! قالت لي بأنها تريد أن تحبني وأنها لا تكترث لعواقب ذلك الحب فقلت لها: "إنني أيضًا لا أكترث ولكنني أخاف عليها إن كشفت قصتنا." قالت: "لا تخف." أحببتها بشدة وأصبحت أكره الليل لأنني كل ليلة كنت أتخيلها في أحضان زوجها وهو يستمتع بكل شيء ويقبلها في كل مكانٍ على مهلٍ وبدقة.. يطيل التقبيل في كل مكان بينما كنت أسرق اللحظات ولا تكفيني لأفعل كل شيء، كان يستمتع بها دون خوف بينما أعيش الخوف في كل لمسة وقبلة.. أما هي فكانت تعاتبني على غيرتي وتقول بأن ذلك له

توصيف واحد: "غباء." فأجيبها: "نعم أنا غبي وأحبك جدًا."
كانت تتفهم غيرتي وتحضنني فأنسى كل شيء حتى مجيء الليل فأعود إلى احتراقي وعذاباتي حتى هي لم تكن سعيدة أيضًا رغم أنها حصلت على الزوج والحبيب، كانت تقسم سعادتها إلى قسمين فتعيش نصف سعادة مع كل واحد منا، فأنا وهو من ضروريات حياتها حيث أمثل لها الحب العميق وهو يمثل لها الأمان والاستقرار، عندما تفكر أن تتخلى عن أحدنا تشعر بخوفٍ شديد لا تقوى على مواجهته، لم نكن نبحث عن حلٍ لأننا نعرف مسبقًا أن أي حلٍ منطقي سيكون ضدنا فأي حل سيعني فراقنا وأنا كنت قد أدمنتها وهي اعتادت أن تقتسم نفسها بيني وبين زوجها.. عذاب ما بعده عذاب! عذاب أهون من فراق!! لم نستطع نحن العشاق الضعفاء أن نواجه الحب ونقول له: "لا نريدك." لقد كان الحب أقوى منا لكنه لم يكن أبدًا أقوى من الظروف فقد بدأت الحرب الأهلية في بلدي وكنت مجبرًا على الرحيل عن ذلك البلد الذي أصيب بهيستريا الحرب وأصبح أبناؤه مهووسين بالقتل والتنكيل وكل منهم يخوّن الآخر ويعتبر نفسه مثالًا حقيقيًا للوطنية وهكذا سافرت وابتعدت عنها مرغمًا.. أظن بأنها حمدت السماء على ما حدث فقد حققت الحرب ما عجزنا عن تحقيقه وهو فراقنا.

❖ ❖ ❖

-تكرر الأمر معي يا غريب، كان لي علاقة حميمية مع متزوجة أخرى لكن هذه المرة كان الشعور بالذنب أقل وطأة فلم أشعر أنني أرتكب الخطأ أبدًا، ربما لأنها المرة الثانية وأنني اعتدت على ذلك الأمر فلم أعد أراه خطأً فالتعود يقتل الشك ويجعلنا نثق بصحة ما نفعله أكثر أو ربما لأنها كانت امرأة روسية فساعدني اعتقادي العربي بأن جميع الروسيات عاهرات ولا يعرفون الإخلاص في العلاقات الحميمية.

-كيف حدث الأمر؟ كيف عرفتها؟ أين ومتى؟

-كنت قد التحقت بأحد المعاهد القريبة من منزلي لتعلم اللغة التركية، معهد مجاني يتبع للدولة التركية وهناك التقيتها.. كنا في الشتاء لكن الدروس ستستمر حتى الصيف وكنت أتغيب كثيرًا متحججًا بالعمل حتى رأيتها في إحدى المرات تنظر إليَّ، ولقد كان المدرس يشرح الدرس والملل قد تسلل إلى عقلي فبدأت أشعر بالنعاس ثم فجأة أدرت رأسي فرأيتها تنظر إليَّ نظرات يمكنك أن تصفها بأي شيء إلا البراءة استغربت الأمر فما أعرفه أنها روسية لكن متزوجة من رجلٍ تركي وتعيش في اسطنبول، دققت النظر إلى يدها لأتأكد من وجود الخاتم في يدها اليسرى فتأكدت لكن النظرات لم

توقف، أصبحت أحب الدروس ولا أغيب عنها أبدًا، كنت أستمتع بتلك النظرات التي نتبادلها وربما كان السبب هو الفراغ العاطفي الكبير الذي كنت أشعر به في تلك الأيام فلقد شعرت بأننا كنا نتضاجع بالنظرات، كنت أضاجعها لساعة ونصف ثم نخرج إلى الاستراحة ويذهب الجميع إلى الصلاة بينما أبقى أنا متعبًا على الكرسي أتجهز للجولة التالية بعد الاستراحة وكانت هي تخرج لتدخن سيجارتها.. نظرت إليها في إحدى المرات من النافذة وكانت تدخن بعمق وتمتص السيجارة كالقضيب فأثارتني بشكلٍ كبير.. رأتني في ذلك اليوم وابتسمت فشعرت أنها أجمل ابتسامة رأيتها في حياتي.

-ثم؟ ماذا حدث بعد ذلك؟

-في إحدى المرات تجرأت وخرجت وراءها في الاستراحة ثم وقفت بجانبها وهي تدخن سيجارتها وحاولت التحدث معها عن أي شيء فلقد كنا نتحدث أحيانًا باللغة الإنكليزية وبالتركية أحيانًا أخرى.. لم نكن نحتاج لكلماتٍ كثيرة فنظراتنا قد أخبرتنا بكل شيءٍ من قبل، شعرت بشهوتها تتفجر في عينيها وكنت مهتاجًا لدرجة الانفجار.. فلقد كانت حالتي غريبة في تلك الأيام حيث كنت مستعدًا لأن أضاجع خمس فتيات في وقتٍ واحد.. كنت محتقنًا وموقوتًا كقنبلة!!

-وبعد ذلك؟

-بعد ذلك.. أخذت رقم هاتفها من المجموعة التي قام بإنشائها المدرس على برنامج (الواتساب).. تحادثنا في كل الأوقات، كانت موجودة دائمًا كأنها تنتظرني وكنت لا أوفر وقتًا إلا وأحادثها به عن أي شيء.. أخبرتني عن زوجها وأنها تحبه فسألتها إن كانت ترغب بغيره فقالت بأنها أحيانًا تشتهي غيره فاقتنصت الفرصة وسألتها إن كانت اشتهتني يومًا؟ فقالت بأنها تشتهيني كل يوم!!

-أوووو جوابٌ قويٌ جدًا ، وماذا فعلت بعدها؟

-نعم.. أثارني ذلك الجواب كثيرًا فلم أحتمل وذهبت إلى الحمام واستمنيت لمرتين متتاليتين!! ولا أعلم لماذا أخبرتها بالأمر!!

-أخبرتها أنك استمنيت؟!

-نعم أخبرتها بذلك.

-وماذا قالت؟

-عاتبتني وقالت بأنه كان يجب أن أوفر ذلك السائل لها.. كلامها هذا جعلني أنتصب مرة أخرى.

-ألم تلتقيا فيما بعد؟

-نعم التقينا.. اتفقنا في أحد الأيام (وكان يوم عطلتي) أن أحضر إلى منزلها وفعلًا حضرت بعد أن أرسلت لي العنوان.. وصلت إلى باب المنزل وقبل أن أطرق الباب؛ فتحت بابها وألقت

نفسـها في حضـني، احتضـنتها وأخـذت تبكـي فتعجبـت للأمـر كأننا عاشقان فرقت بيننا الأيام والتقينا بعد طول غياب!!

دخلـت المنـزل وأغلقـت البـاب وهـي لم تـزل تتعلـق بعنقـي وتحتضنني.. سـألتها: "لِمَ الحـزن؟" قالـت: "لسـت حزينـة." قلـت: "لِمَ البكـاء؟" قالـت: "لا أعلـم!!" توقفـت هنـا عـن طـرح الأسـئلة.. فهمـت أنهـا ربمـا لا تعلـم مـا يـدور في داخلـها مـن مشـاعر.. لم تسـتطع أن تفسـر تلـك الأحاسـيس المتناقضـة الـتي تجتاحهـا، عـذرتها فقـد هـاجرت عـن بلادهـا بعيـدًا عـن أهلـها لسـببٍ أجهلـه ولا أرغـب بمعرفتـه وتزوجـت رجلًـا يكبرهـا بـأعوامٍ كـثيرة ولا يـتكلم لغتهـا، اختلطـت المشـاعر في داخلـها فـانفجر صـمام الـدمع معـبرًا عـن كـل شـيء.. عـن فـرحٍ وحـزنٍ وحـنينٍ وذلٍّ وحـب!! جلسـنا قليلًـا ريثمـا هـدأت ثـم اقترحـت عليهـا أن نشـرب شـيئًا ونجلـس لنتحـادث فقـط لا غـير.. كـان الجـنس بعيـدًا جـدًّا عـن أفكـاري في تلـك اللحظـات، شـعرت بمسـؤوليتي تجـاه تلـك المـرأة الضـعيفة، خمنـت أن الـنهم الجنسـي لـذلك الكهـل قـد ابتلـع منهـا الكـثير لـذلك ربمـا تكـون قـد وضـعت علـى صـمام شـهوتها جـدارًا مـن العزلـة لكنهـا لم تصـبر كـثيرًا، خالفـت كـل توقعـاتي تلـك عنـدما رمـت فنجـان الشـاي مـن بـين يـديها ثـم استعاضـت بـذلك الفـراغ في كـف يـديها برأسـي، أحاطـت رأسـي الصـغير بكلتـا يـديها الـرقيقتين وعـج المكـان بأنفاسـنا ثـم راحـت تسـحب وجهـي نحوهـا أو ربمـا قـد

امتطى رأسي تلك اليدين وراح يبحث عن وجهها وسط الفراغ الكبير في حياتي، عندما تلامست شفتانا واحتضننا بعضها البعض تلاشت الأشياء من حولي ولقد كانت حرارة شفتيها مرتفعة جداً فأنا أجهل كمية الاشتياق التي زُرعت في تلك الشفتين المُحمرتين حيث من الغريب جداً أن تجد إحساسك قد تكور ووضع بين شفتيك، تغيب الأشياء والأصوات والأجسام في تلك البقعة المعتمة وتتضاءل الأحاسيس بالمكان، ترتسم أمامي فقط شفتاها الرطبتان ورائحتهما. بعد أن ابتعدت قليلاً عاد الفراغ من جديد يلف بي فلم أحتمل ذلك القرب البعيد! بادرتها أنا هذه المرة ووضعت شفتي على شفتيها ثم رحت ألثم كل جزء صغيرٍ فيها، ألثمها بإحساسٍ كبير فلقد كنت أطبع تلك القبلات على شفتيها ووجهها بتركيزٍ تام كأني أحاول أن أقتل اليأس والملل فيها بقبلاتي تلك، عندما امتزج رضابها برضابي خيل لي أننا أمسينا نفهم بعضنا البعض أكثر من أي مرة سابقة، خلعنا أرديتنا كما تخلع الأفاعي جلودها وارتمينا في أحضان السرير ثم رحت أقبلها في كل مكان كأني أحاول أن أحتل أكبر مساحة ممكنة من حياتها من خلال جسدها ذاك، كانت تمتلك جسداً أبيضاً وناعماً كأجساد الأطفال، مليساً ونابضاً بالحياة كقطعة مرمر! خفت أن أجرح نقاء بشرتها بصلابة شفاهي، بدت لي شعيرات الدم في نهديها من شدة

بياضهما كأن مساماتها خُلقت للحب لا أكثر! أما رائحة فمها فأجمل من كل العطور التي يمكن أن ألقاها يومًا ما ، باعدت بين قدميها فبدت لي الحياة كلها هناك ثم أولجت روحي فيها ورحت أصب بداخلها نيراني ، رحت أسقي جفاء قلبها وروحها من فيضان قلبي فبدا لي أن الحياة قد دبت فيها من جديد وهي تطوي جسدها النحيل بين تفاصيلي حتى سقطت بين أحضاني بعد جولتين من الحب.. أصبحنا نلتقي كثيرًا ولم نعد نشبع ، كان الذي بيننا كما فهمت منها مرة -وهي تحاول أن تشرح بكل اللغات - لا يشبه الجنس ولا الحب، إنه صلاة من نوعٍ ما فاستغربت ذلك الوصف ، هل كانت فعلًا تشعر بشيءٍ روحاني وهي معي؟!! لم أفهم لكنني لم أعترض، لقد كنت سعيدًا ولم أستطع أن أفسد تلك السعادة بالفهم الزائد والتفاصيل المملة.

❖ ❖ ❖

بعد أن أروي تلك الذكرى؛ نجلس بصمتٍ فيسألني: "بماذا تفكر؟!"

أجيبه:

-ما هو أكثر شيء يفكر به الإنسان يا غريب؟

-ليس شيئًا واحدًا هو الذي يشغل تفكير الإنسان.. هناك أشياء متعددة يشغل كل منها حيزًا معقولًا في عقل الإنسان.

-مثل ماذا؟

-الحب مثلًا أو الموت أو الله أو الماضي أو الخوف أو حتى العيش!!

-الحب نعم، أعتقد أن الحب له الحيز الأكبر فكيف سنعيش بدون الحب؟! نحن كائنات من لحمٍ ودم وعظام وحب.. الحب في تكويننا فهو التوليفة السرية والمكشوفة للحياة على هذا الكوكب، إنه مكشوف لأن الكل يعرفه بشكلٍ أو بآخر وهو سري لأنهم قلائل جدًا هؤلاء الذين يحافظون عليه ويستمرون بالشعور به نحو ذات الشيء أو ذات الأشخاص مدى الحياة.

-والموت؟

-الموت نعم أيضًا يأتي بالدرجة الثانية بنظري، فكلنا محكومون بالموت مع وقف التنفيذ.. مساجين في الحياة ومجبرين على التأقلم مع معرفتنا اللعينة أن كل شيء سينتهي يومًا ما فهناك من يتجاهل هذه الحقيقة كي لا يصاب بفوبيا الحياة حيث أن الحياة تبدو للبعض بأنها لا شيء إلا طريق يؤدي إلى الموت!!

-والله؟!

-(الله) إنك تفكر به حقًا لكنه لن يستحوذ على تفكيرك إلا عندما تفقد والديك فتفكيرنا بالله هو تفكير أناني بحت عندما نحتاج وعندما نتعب ونمرض ويداهمنا الخطر، إنه في نظر الكثيرين فانوس سحري لتحقيق الأحلام والمطالب والحاجات!!

-والماضي؟

-نعم الذكريات هي كل شيء، كل ما يبقى عندما نسقط أو نصل إلى الهدف، في الانتصار والخسارة!! ستتذكر كل شيء حدث، كل شيء كان في الماضي وهيأ الأجواء لحاضرك الذي سيصبح مجرد ذكرى وماضٍ لمستقبلك فالماضي هو نحن!!

-الخوف؟

-الخوف في كل مكان، الخوف من الألم والفقدان والفقر والمجهول أيضًا فالخوف يحرثنا من الداخل كالمرض، يأكل أرواحنا فتهرم النفس قبل الجسد ثم يصمت قليلًا ويفكر ليقول: "لكن يا غريب، لماذا ذكرت العيش؟"

-ولِمَ لا؟

-لا أعتقد بأن هناك من يفكر بالعيش ولو كانوا موجودين فهم قلة قليلة فالإنسان يفكر بكل شيء حتى ينسى العيش، ينسى بأن عليه أن يعيش كل لحظة بما فيها من

سلبيات وإيجابيات وأن يتعلم من أخطاء اللحظة ويستمتع بإنجازاتها ، إنه يكرر نفسه فقط ويتفنن بالندم والحسرة فالعيش حرفة لا يتقنها الكثيرون يا غريب وحتى أنهم لا يفكرون بها أبدًا، لا أتفق معك.

صوتُ الغريب ـــــــ

# الفصل السابع

لا يهمني أن أخسر من لا يريدني، فقد خسرت من أردتهم وما زلت حيًا.

(كارل ماي)

صوتُ الغريب ـــــــ

**المكـــان: الشاطئ.**

**الزمـــان: يوم العطلة.**

ذهبت إلى الشاطئ، أصطحب معي كتابًا من الكتب القليلة التي أمتلكها في اسطنبول فكل هواة الكتب الذين عاشوا في اسطنبول سيعلمون معنى أن تحصل على كتابٍ عربي جيد وبسعرٍ مناسب في اسطنبول، إنها معاناة حقًا!! جلست متأملًا هدوء البحر الصاخب فلطالما اعتبرت البحر صامتًا مهما علا صوت ارتطام الموج بالأحجار المتكومة على الشاطئ.. البحر بنظري حكيم صامت وعاشق صامت، وقاتل صامت أيضًا!! تقصدت أن أكون وحيدًا في ذلك اليوم أو ربما شبه وحيد لأنني أعلم أنه يرافقني دائمًا حتى لو كان يحترم صمت البحر في نفسي ويصمت تضامنًا مع وجهة نظري.. أما لماذا تقصدت الوحدة في ذلك اليوم؟ لأنه بمثل تاريخ هذا اليوم منذ ست سنوات بدأت ما تسمى بالثورة في بلدي وكما قلت سابقًا لم يكن لي مبدأ واضح أو موقف.. ربما كنت بداخلي أشعر بالخيبة التي ستعتمر في قلوبنا مع مرور السنوات! لكن تلك الأيام ما زالت

عزيـزة علـى قلـبي، عنـدما كنـت أجتمـع مـع بعـض الأصـدقاء الثـائرين في بيـت أحـدهم اجتماعـات شـبه سـرية قبـل موعـد المظـاهرة القادمـة، كـانوا يجلسـون ليقصـوا سـلبيات وإيجابيـات المظـاهرة السـابقة والتغيير الواجـب عملـه في المظـاهرة القادمـة، لم أخـرج في أيـة مظـاهرة لكـنني كنـت أسـتمتع بتلـك الاجتماعـات، أسـتمتع بـالخطر والخـوف وأشـعر بـأنني أقـتحم المحظـور وأتحـدى كـل التحـذيرات والتهديـدات فكمـا نعـرف جميعًـا أن الممنـوع مرغوب.. كنت أشعر بقيمة وجودي تتجدد في داخلي،

هـذه الرغبـة في اقتحـام المحظـور لم تكـن جديـدة علـى نفسـي فمنـذ سـنوات قبـل أن تبـدأ الأحـداث كنـت قـد عرفـت صـديقًا لـي يرتـاد اجتماعـات سـرية للحـزب القـومي السـوري، كـان أخوالـه جميعًـا قـوميين وهـذا مـا دفعـه إلى الإعجـاب الشـديد بمبـادئ هـذا الحزب..

قبلـت عرضـه أن أحضـر معـه اجتماعًـا سـريًا واحـدًا وإن أعجـبني أكمـل وإن لم يعجـبني أمتنـع عـن الـذهاب وأمضـغ السـر وأبتلعـه، كـانوا يجتمعـون كـل يـوم جمعـة في المسـاء كأنهـا صـلاة مضـادة لصـلاة المسـلمين النهاريـة، أحببـت اليـوم والتوقيـت فهـو يـوم العطلـة في بلادنـا كمـا أنـني أحببـت أنهـم سـيعملون علـى شـرح كتـاب المحاضـرات العشـر لأنطـون سـعادة مؤسـس ذلـك الحـزب فقـد كنـت مهووسًـا منـذ صـغري بالكتـب وكـان أمـرًا جيـدًا أن

أجد من يشرح لي كتابًا صعبًا وقيمًا كذلك الكتاب، التزمت لفترة معينة وبعدها تلقيت عن طريق صديقي دعوة لحضور احتفال ما يدعى (بمئوية سعادة) وهو احتفال يجريه الحزب القومي كل مئة سنة لتخليد ذكرى زعيمهم أنطون سعادة، احتفال اكتشفت فيما بعد أنه يجرى بعلم الحكومة وبموافقتها!!!

برغم روعة الاحتفال وأثره الكبير الذي تركه في نفسي لكنني صدمت وخاب أملي، فلماذا كل تلك السرية التي كنا نجتمع بها وشعوري أنني ثائرٌ وشجاع ومقتحم للممنوعات؟ ماذا عنه؟ كان كل شيء كذبة كبيرة خلّفت أثرًا هائلًا في نفسي وساعدتني على اتخاذ قراري الصائب بالابتعاد عن ذلك الحزب للأبد.. بعد ذلك بفترة ليست بالبعيدة تعرفت أيضًا على الحزب الشيوعي من صديقٍ آخر؛ حزب كان قد ضعف كثيرًا وتراجعت شعبيته كثيرًا بعد انهيار الاتحاد السوفيتي.. لم تعجبني الأفكار كثيرًا بقدر ما أعجبتني بعض الشخصيات الشيوعية الثورية مثل: تشي غيفارا، فيديل كاسترو، لينين، أحببت الشخصية المتناقضة التي تميز بها تشي غيفارا فقد كان طبيبًا وإنسانًا كما أنه كان قاسيًا وحازمًا في الحرب وخاصة مع المتخاذلين والخائنين، كان مريضًا بالربو ولكنه يعشق التدخين، يحب الحياة ولكنه اختار الموت كطريقٍ إليها..

كل أصدقائي الذين عرفتهم في تلك الفترة من الزمن إما أنهم قد سافروا أو تزوجوا، أنا أيضًا سافرت لأهرب من أتون حرب لا تميز بين الصالح والطالح؛ حرب أهلية عالمية.. حرب بين الإخوة. تديرها دول كبرى وأديان وطوائف متعددة لكنني لم أفكر بالزواج فكما قلت كنت مشبعًا بالثورة على مجتمعي في كل شيء فلقد كنت أرفض عاداته ومفاهيمه وكان الزواج أحدها، أحب أن أكون مع امرأة واحدة أخلص لها وتخلص لي لكنني أرفض أن أستمد شرعية تلك العلاقة من ورقة، أرفض أن يقرر رجل دينٍ منافق أن قلبي أصبح ملكًا لفتاةٍ ما، أرفض أن تقرر القوانين السماح لي أو عدم السماح بتقبيل حبيبتي وتعانق جسدينا في سرير أو غابة أو شارع!! أرفض كل شيء توافق عليه الأغلبية كالأغنام بدون أن تسأل؛ لماذا وهل نحتاج فعلًا لهذا أو ذاك؟! أرفض أن تكون سعادتي محكومة بقوانينهم وأعرافهم الغبية فالسعادة لها أشكال عديدة نشعر بكل نوع منها على حدة وربما نفضل نوعًا عن الآخر فلا نشعر بأننا سعداء إلا في ذلك النوع وحده فمثلًا قد نشعر بالسعادة في كتابٍ أو مع حبيب أو صديق أو مع العائلة لكن عندما ينتهي الكتاب ويهجرنا الحبيب ويبتعد الصديق وتسرقنا الغربة من أحضان العائلة؛ هل سنبقى سعداء؟!! نعم طبعًا سنبقى سعداء وإلى الأبد فالإنسان لا يتغير.. قد تتغير ظروفه ورغباته لكنه

يحتفظ بداخله بالأصل الذي سبب كل ذلك وهنا يأتي السؤال؛ هل نحن نمتلك بذرة السعادة في داخلنا؟! نعم بذرة السعادة في داخلنا لكنها تحتاج إلى الري والاعتناء وهنا يأتي دور هذه الأشياء الكثيرة التي نحزن إن غابت عنا.. تلك الأشياء التي ساعدت على نمو هذه البذرة لتصبح شجرة مستقلة بذاتها، نعم سعادتنا الآن بعد كل ما مررنا به وكل ما خسرناه أصبحت مستقلة بذاتها ولا تحتاج إلى عوامل خارجية لتنمو أكثر وتثمر وتزدهر.. لا تحتاج قانونًا أو ورقةً أو تشريع، لا تحتاج أشخاصًا خرجوا من حياتنا بإرادتهم ولا تحتاج أن نتوسل لهم كي يبقوا معنا وينقذوننا من وحدتنا اللطيفة!!

"السعادة طريقة حياة"

أقرر العودة إلى المنزل بعد أن أزلت ثقلًا كبيرًا من الذكريات عن كاهلي فالتحدث عن ذكرياتي يريحني لقد كنت أتعرض دائمًا للنقد بسبب عادتي هذه.. أنني أتحدث عن كل شيء يحدث معي وهي خصلة استغلها الصوت الغريب ليجعلني أكشف له عن أسراري كلها.. أسرار لا أعلم لم يرغب بها ولم يستمتع بسماعها؟!! سألني:

-تريد العودة إلى المنزل أم نجلس لنتحدث قليلًا في مكانٍ ما؟

-عن ماذا سنتحدث؟

-ها!! لم يعد لديك ما تتحدث عنه؟!!

-أشعر بالتعب فقط.. لا أشعر بشيء آخر ولا أفكر الآن إلا بالنوم.

-أخبرني إحدى الذكريات المثيرة.

-ماذا تقصد؟

-علاقاتك الجنسية.. أحب صدقك في التحدث عنها.

-لماذا اهتمامك الشديد بعلاقاتي؟ لا أفهم!!

-ليس عليك أن تعرف ذلك.. بيننا اتفاق وعليك أن تلتزم به.

-حسنًا.. دعني أفكر بواحدة!

# الفصل الثامن

" نحن كاذبون إلى أن نبكي، مرتاحون إلى أن نفكر، مترفـــون إلى أن نحـــب.. وأقويـــاء، أقويـــاء إلى أن ننجـــب الأطفال."

صوتُ الغريب ـــــــ

**المكــان: قسم الشرطة.**

**الزمــان: يوم العطلة التالي.**

ذهبت مع صديقي في يوم العطلة إلى قسم الشرطة القريب من منزلنا في اسطنبول وذلك لكي نصدر له بطاقة هوية تركية (كيملك) تثبت أنه لاجئ هنا في تركيا.. لم يكن ذلك بهدف الحصول على مساعدات من الحكومة لقد كان هدف صديقي من استصدار هذه الهوية هو أنها كانت شرطاً أساسياً لاستصدار إقامة عمل في تركيا.. إنها تشبه إلى حدٍّ كبير ورقة الانتساب إلى حزب البعث في سوريا كشرطٍ أساسي للتوظيف!! وفي مركز الشرطة جلسنا ننتظر دورنا عندما دخلت امرأة تبكي وتصرخ وزوجها خلفها كان يصرخ معها بدل أن يهدئها.. كانت امرأة سورية عرفتها من لهجتها، سارع رجال الشرطة إليها محاولين أن يسكتوها وهي تبكي وتصرخ ولا أحد يفهم منها شيئاً إلا أنا وصديقي طبعاً وبعض السوريين المتواجدين هناك، كانت تصرخ: "ابنتي، خطفت ابنتي، أريد ابنتي أرجوكم." ثم نادى علينا الشرطي باللغة التركية: "هل بينكم

عربي يتحدث اللغة التركية؟" لا أعرف لماذا تدخلت أنا الذي كنت أحاول منذ دخولي هذا البلد أن لا أتدخل بأشياء لا تعنيني، وقفت وجاوبت: "أنا أتحدثها قليلًا!!" قال لي: "اشرح لي ما بها هذه المرأة؟"

قلت بالتركية ما معناه بالعربية: "ابنتها ضاعت.. هناك من أخذها." قال: "هل تعرف من أخذها؟"

سألتها. قالت: "لا." وأخذت تشرح لي القصة كاملة وهنا عرفت بأنني لن أستطيع أن أشرح القصة للشرطي باللغة التركية، فاقترحت أن أتصل بصديقٍ تركي يتحدث العربية كي يساعدنا ووافق الشرطي على ذلك، شرحت المرأة الأمر لصديقي التركي وهو متصل على الهاتف معنا، بعد أن شربت كأس ماء وهدأت قليلًا.. قالت: "ابنتي عمرها 20 سنة وقد وجدت عملًا في أحد المعامل القريبة من منزلنا.. خرجت البارحة إلى الغداء في الساعة الثانية عشرة ظهرًا في المطعم المقابل للمعمل ولم تعد بعدها أبدًا.. لا إلى المعمل ولا إلى البيت.. ذهبنا إلى صاحب المعمل لنسأله ولكنه رفض لقاءنا." ترجم صديقي كل ذلك للشرطي فأخرج دفترًا ضخمًا وسجل القصة، ثم طلب من زوج المرأة أن يضع توقيعه عليه.. أخذ الشرطي رقم صديقي ليتواصل معه إذا اضطر الأمر ووافق صديقي برحابة صدر فهو بطبعه إنسان جيد يحب المساعدة.. علمت فيما بعد من صديقي

التركي نفسه أن الشرطة استدعت صاحب المعمل الذي أنكر أنه يعرف شيئًا ورفض حتى أن يساعد الشرطة في الوصول إلى تسجيلات الكاميرا التي تصور بشكلٍ دائم مدخل المعمل!! علمت أيضًا أنهم سجلوا القضية ضد مجهول ويبدو أنهم ملوا من الترجمة وبكاء الوالدة المتواصل.. علمت أيضًا أن الشرطة استدعت عائلة الفتاة بعد خمسة عشر يومًا ليتعرفوا على جثة ابنتهم التي كانت قد تعرضت للاعتداء الجنسي مرارًا وتكرارًا بشدةٍ ووحشية.. كانت كما قال صديقي: "ملوثة بالسائل المنوي والدماء." جلست في منزلي بعد آخر اتصال لي مع صديقي، مذهولًا من الوحشية المتأصلة في دواخلنا.. كيف لنا أن ندنس فعلًا مقدسًا كالجنس هكذا؟!! فعل لولاه لما وجدنا وضحكنا واستمتعنا بكل شيء، فعل يمنحك أقصى درجات المتعة حتى لتشعر أنك في لحظة النشوة إله تسجد له كل الآلهة!!

كيف يمكننا أن نشعر بالمتعة ونحن نسمع صراخ وبكاء واستجداء أحدهم، صراخ وألم نحن من كنا السبب فيهما!! السوريون تعذبوا في بلدهم من أثر الحرب فهربوا إلى بلدان ظنوا بأنها أكثر أمانًا فخانهم كل شيء؛ الحظ واللغة وإيمانهم بأن الله يحمي الطيبين من أذى الأشرار والمتوحشين.. بكيت على فتاةٍ لم أعرفها، بكيت على وطني الذي تمزق كفرجها،

بكيت على دمائها التي تلوثت بالسائل المنوي كما تلوثت شعارات الوطنية والكرامة والحرية في بلدي بالنفاق والتكفير والتخوين!! أحياناً نشتهي البكاء بشدة كأننا نحمل في دواخلنا فائضاً من الحزن يود لو يسيل دموعاً، يود لو يتناثر في الأجواء صراخاً ويود لو يتحرر من واقعيتنا وقوتنا وتقبلنا لكل هذا الألم الذي يلاحقنا في كل مكان؛ في الأوطان والمنافي والعمل والمنازل وأيضاً الشوارع وغرفنا المغلقة، أحياناً نشتهي الضحك فنضحك حتى البكاء لأننا في الحقيقة لا نشتهي شيئاً كالبكاء فواقعنا حزن وسعادتنا أحلام تمر بسرعة وتختبئ في الذكريات.

❖ ❖ ❖

في اليوم التالي وبعد انتهاء العطلة.. ذهبت ككل يوم إلى العمل واكتشفت عندما أخرجت هاتفي المحمول من جيبي لأنظر إلى الساعة، أن خط الهاتف متوقف!! نعم في تركيا هناك سياسة اسمها (سياسة التتريك) وهي تقر بأن على كل جهاز تم اقتناؤه من خارج البلاد أن يتم (تتريكه) في مركز الشرطة ودفع مبلغ مالي كبير.. هذا الأمر وجد له السوريون المتواجدون في تركيا حلاً مؤقتاً وهو أن يعدلوا شيئاً ما في نظام

الجهاز مقابل مبلغ بسيط مما يسمح لك أن تستعمله لمدة ثلاثة أشهر على شبكة الهاتف التركية ثم يتوقف مرة أخرى وتكرر العملية كل ثلاثة أشهر..

هذا الأمر كان يزعجني لأنني سأضطر إلى الذهاب مسافة بعيدة واستخدام مواصلات متعددة حتى أصل إلى المحل الذي سيقوم لي بهذه العملية فقررت أن أشتري جهازًا تركي المنشأ وأنتهي من تلك المسألة ولذلك وبعد انتهاء الدوام، ركبت الحافلة إلى منطقةٍ تدعى (أوسكودار).

-"يبدو أن للأشياء الدائمة سحرها."

قال الصوت الغريب.

-هاا! أنت هنا؟

-ألا أرافقك في مشوارك؟

-ليس هناك مشكلة! سأضع سماعات الأذن كالعادة كي لا يظنني الناس مجنونًا.

-لا ننتهي من مسألة الناس والظنون.

-ماذا كنت تقصد بقولك للأشياء الدائمة سحرها؟

-أقصد أنكم تفضلون الأشياء التي تدوم إلى الأبد.. تكرهون المؤقت منها وترفضون الاعتراف بأن للأشياء نهاية فما من شيءٍ دائم في الحياة لكن الإنسان منذ البدء يحاول أن يكسر هذه القاعدة.. يحاول أن يصنع أشياءً تخدمه مدى

الحياة، أن يجد عملًا دائمًا وزوجةً دائمةً ووطنًا وأرضًا دائمة.. أكثر ما يخافه الإنسان هو التغيير ومن هنا تأتي قوة الأديان والدكتاتوريات وكل الأيدولوجيات التي نعرفها ولا نعرفها، إنها تستغل خوف الإنسان من التغيير وحبه للاستقرار والروتين فالروتين يمنحه شعورًا زائفًا بالأمان.. سعادةٌ وهميةٌ وهشة تقتلها أول صدمة يتعرض لها كموت عزيز أو خسارة عمل أو نشوب حرب!! إنكم ترفضون أن تروا الجمال في الأشياء المختلفة، ترفضون مثلًا فكرة أن السعادة مؤقتة والعمر قصير والفرص سانحة في أماكن أخرى للعيش أو العمل أو الحب!! لهذا لا ترون في عالمكم إلا التعاسة والحزن لأنها مشاعر مكروهة فتشعرون بأنكم تعيشونها دائمًا بينما هي كباقي المشاعر الأخرى.. مؤقتة!! المكروهات تعلق في الذاكرة مدة أطول!! كما أن دوام الحال يخلق التعود والتعود يبدو لكم جميلًا لكنه في الحقيقة قبيح جدًا.

-فعلًا.. أصبت حتى أجمل الجميلات يصبح جمالها يومًا ما عاديًا في نظرنا فالتعود يقهر الانبهار في نفوسنا كما نتعود العيش في أجمل المدن السياحية وكما نتعود شكل القمر ودفء الشمس وصوت البحر وطعم الماء، وانتعاش الأنفاس العميقة في الغابة.. كل ذلك يصبح عاديًا عندما نعيشه كل يوم، كنت أرى تلك الجميلة كل يوم حتى أصبح طقسًا

متكـــررًا كالصـــلاة أفعلـــه بشـــكلٍ تلقـــائي دون الإحســـاس بـــه، بـدون أن يولـد في نفسـي الدهشـة الـتي تولـدها المعرفـة الأولى لشـيء ما.. تخيل أنها كانت جميلة جدًا حدّ التجاهل والاستهتار!!

-هـذا قـد يفسـر أيضًـا موضـوع الخيانـة فالإنسـان الـذي يخـاف شيئًا ربمـا في أعمـاق عقلـه البـاطن يرغبـه بشـدة لكـن عقلـه الـواعي وتفكـيره العقلانـي الـذي يقـدر العواقـب والخسـائر يمنعـه مـن الإقـدام علـى التغـيير فهـو يمـل التعـود علـى إنسـانٍ آخـر، زوج أو زوجـة لكنـه يخـاف الوحـدة إذا مـا اكتشـف الطـرف الآخـر خيانتـه فإنـه يخـاف أن يخسـره ويحـاول الاحتفـاظ بكـل شـيء فهـو أيضًـا جشـع وطمـاع!! لكنـه عنـدما يفكـر بـالأمر مـن كـل جوانبـه ويخدعـه الـروتين اليـومي فيشـعر بأمـان النجـاح في خيانتـه دون الوقـوع في الخطـأ إذا مـا هـو عـرف قواعـد هـذا الـروتين وأمسـك بكـل الخيـوط وخطـط للأمـر جيـدًا، ذلـك الأحمـق لا يعـرف أن التغـيير يشـمل كـل شـيء حتـى الـروتين وأن ذلـك التغـيير سـيحدث حتى لو كان هو يتجاهل حدوثه،

إنـه يرغـب بتغـييرٍ في حياتـه دون أن يخسـر شـيئًا مـن روتينـه السـابق!! كـل زوج هـو مشـروع خـائن وكـذلك كـل زوجـة هـي مشـروع خائنـة مـع وقـف التنفيـذ حتـى تتـوفر الظـروف والأسـباب المناسبة!!

❖ ❖ ❖

الذكرى (6)

كنت في مدينة حماة عندما سمعت الخبر وعندما أعلن الحمويون إغلاق مدينة حماة ومنع الموظفين من دخول المدينة.. كانوا يريدون أن يعلنوا إضرابًا عامًا بالقوة، بعد أسابيع من المظاهرات التي لم تجد نفعًا فلقد كنت أعمل ليلًا في أحد المشافي الخاصة، بالإضافة إلى وظيفتي في المشفى الحكومي واستيقظت لأعلم أني حبست في المدينة ولم أعد أستطيع الخروج!! جمعت أشيائي كلها وذهبت إلى مديرة المشفى وأخبرتها أن الأمر قد يطول وأنني لا أستطيع أن أبقى سجينًا في المدينة وتوسلت إليها أن تساعدني بالخروج بأي طريقة كانت.. قالت لي أنني سأكون ضيفًا مكرمًا عندهم ريثما ينقضي الأمر، شكرتها على كرمها وأصررت على طلبي رغم أني كنت أثق بها وبجميع العاملين في المشفى فقد كانوا أكثر من الإخوة في تعاملهم معي ولم ألق منهم شرًا أبدًا لكنني كنت أخاف أن يتكرر الأمر الذي حدث في سنة 1982 تلك الأحداث المشؤومة التي راح ضحيتها الآلاف وذهب الصالح بالطالح، طلبت المديرة أحد السائقين لسيارة الإسعاف وسألته عن إمكانية الخروج فقال بأنه يستطيع أن يوصلني حتى (ساحة

العاصي) فقط وبعدها عليَّ أن أكمل الطريق سيرًا على الأقدام حتى المدينة الصناعية التي تقبع في مدخل المدينة من جهة الشرق، أي عليَّ أن أسير ما يقارب الثلاثة كيلو متر، يتخللها العديد من الحواجز التي أقامها سكان المدينة هنا وهناك وأنه لا يضمن رد فعلهم إن عرفوا أنني أعمل في وظيفة حكومية وخاصة عملي في المشفى الحكومي كان يعد شبهة كبيرة حيث فقد الحمويون (بحسب ادعاءاتهم) العديد من الجرحى الذين دخلوا إلى المشفى الحكومي بإصابات بسيطة وخرجوا جثثًا هامدة!! أخبرت المديرة أن الأمر مستحيل لخطورة العبور من تلك الحواجز فأخبرتني أنه الحل الوحيد إن أردت الخروج اليوم لكنها اقترحت حلًا مساعدًا فلقد اقترحت أن تعطيني لباسًا طبيًا لأحد الأطباء الذين يعملون في مشفى (الحوراني) المشهور بمساعدته للمتظاهرين والمصابين جراء الاشتباكات مع رجال الأمن والشرطة، وأن أدعي أنني أعمل في ذلك المشفى لعل ذلك يساعدني بالعبور آمنًا إلى مدخل المدينة.. أعجبتني الفكرة فأخذت اللباس الطبي الذي نقش عليه اسم المشفى وانطلقنا أنا والسائق في سيارة الإسعاف الخاصة بالمشفى.. لأول مرة كنت أشعر بالخوف في تلك المدينة الجميلة التي أحببتها جدًا، كانت الشوارع خالية تمامًا إلا من بعض الحواجز هنا وهناك ثم وصلنا إلى أول حاجز فأخبرناه أننا في مهمة لإحضار أحد المصابين من

أهالي المدينة فشكرنا رجال الحاجز المسلحين بالعصي والسكاكين الطويلة وأطالوا الدعاء لنا وأشادوا بشجاعتنا وإقدامنا.. أثارت أشكالهم الرعب في قلبي وخفت أن أفشل في خداعهم وأسقط في قبضتهم فتخيلت ماذا سيحدث لي لو أنهم كشفوا أمري! وكدت أن أفقد الوعي من شدة الأمر إلا أنني تماسكت فجأة وامتلأ قلبي بشجاعة غريبة لم أعهدها وقررت أن أخوض في ذلك الأمر إلى النهاية، قررت أن أتماسك وأصل سالمًا إلى منزلي مهما حدث!! الحواجز الأخرى كان ينبغي عليَّ أن أتجاوزها وحيدًا حيث أنزلني السائق كما اتفقنا في ساحة العاصي واعتذر كثيرًا لأنه لا يعرف من سيكون على الحواجز الأخرى ويخاف أن تسرق سيارة المشفى، التمست له العذر طبعًا وشكرته على مساعدته وأكملت الطريق سيرًا على الأقدام.. واجهني أول حاجز بعد مسافة قصيرة في منطقة تسمى (دوار الشريعة) حيث كان الرجال يجلسون في الظل على بعض الأحجار التي جمعوها لتكون لهم كالكراسي، عندما رأوني وقفوا مباشرة وجهزوا سكاكينهم وعصيهم ثم اقتربت منهم متصنعًا عدم الاكتراث وقلت: "السلام عليكم." ردوا السلام وسألوني عن هويتي فتصنعت اللهجة الحموية وشرحت لهم كما أخبرتني المديرة؛ أنني أعمل في مشفى الحوراني وبمجرد سماعهم اسم المشفى اختلف أسلوبهم ومعاملتهم وشكروني على

مجهودي وسمحوا لي بالمرور بسهولة.. في هذه اللحظة شعرت بالأمان وأكملت طريقي واثقًا إلى أن وصلت إلى الحاجز الذي يليه فأقبلت عليهم بنفس الطريقة وعرفتهم بنفسي لكنهم هذه المرة لم يكونوا ودودين كسابقيهم فقد أقبل عليَّ زعيمهم وسألني: "ما الدليل أنك تعمل في مشفى الحوراني؟" هنا ارتبكت وأخرجت له اللباس الطبي وعندما رآه رمقني بنظرة ارتياب وقال: "تفضل الله يعطيك العافية." هنا ابتسمت وشكرته وأكملت طريقي وعندما تجاوزتهم بقليل سمعته يصرخ عليَّ فاستدرت ناحيته وسألته عن طلبه فقال: "ارجع أريد أن أسألك سؤالًا." أخافني الأمر ولكنني تماسكت وقلت له: "طبعًا تفضل." قال: "إذا كنت فعلًا تعمل في الحوراني، إذًا أخبرني كم مصابًا دخل إلى المشفى البارحة ليلًا؟" عندما سمعت السؤال زال التوتر عني وشعرت بالارتياح فقد سمعت السائق يتحدث مع المديرة عن عدد المصابين الذين تم تهريبهم من مشفى الحوراني وأن أحدهم كان قريبًا له فأجبته مباشرة وبدون تردد: "عددهم ستة!!" ابتسم لي وقال: "أنا آسف يا أخي لكل هذه الأسئلة ولكن للضرورة أحكام، شكرًا لك.. تفضل." أكملت طريقي حتى وصلت إلى الحاجز الأخير وصدمت بأنه ليس حاجزًا لأهل المدينة وإنما حاجز لرجال الأمن، أوقفوني وكانوا مصدومين بوجودي في داخل المدينة وقد شكوا بأمري

فاضطررت أن أشرح لهم أني موظف حكومي وأخرجت لهم اللباس الطبي الخاص بالمشافي الحكومية لكي يصدقوا.. انتظرت كثيرًا على الحاجز حتى قدمت شاحنة كبيرة لنقل الغاز كانت متجهة نحو مدينتي فأوقفها لي عناصر الأمن وطلبوا من السائق أن يقلني معه.

❖ ❖ ❖

# الفصل التاسع

لا شيء كالانتظار..

يقتل شوقي إليك..

أنا شاعر أحمق ظن يومًا..

أن الحب أثمن من كل الذهبْ..

أنا لعبة الأقدار..

قتيل حرب لا تنتهي..

بـــيـــن الحـــــداثة والـعــــــربْ...

صوتُ الغريب ـــــــ

اتصلت بي أمي بعد عودتي من العمل حيث كانت تعرف متى أذهب ومتى أعود.. نقلت لي خبرًا مهمًا (من وجهة نظرها) فقد مات البارحة أحد العناصر المهمة في اللجان الشعبية التي تم تأسيسها منذ بداية الأحداث والتي ضمت أبناء المناطق الذين يرغبون بالقتال والدفاع عن مناطقهم فقط دون التدخل بالاقتحامات والتوسعات التي يقوم بها الجيش السوري في مناطق أخرى، أمي كانت تصرخ وتقول: "استشهد البارحة." وأبي كان يصرخ بغضب بجانبها: "راح البطل رااااح!!" قدمت تعازي الحارة لأمي وأبي المفجوعين بشدة بموت بطلهم وحاولت أن أظهر بعض الحزن والاحترام لكنني صدمت فعلًا وحزنت أكثر! ليس على موت البطل وإنما على الذاكرة الضعيفة التي يحملها القسم الأكبر من أفراد شعبي وطيبة القلب الهائلة التي تسمح لهم بنسيان كل عمل سيئ قام به شخص ما، في حال أن مات هذا الشخص في معركةٍ ما أو قام بفريضة الحج وحذفت كل أخطائه!! الشخص الذي وصفه أبي بالبطل والشهيد كان من

أوائل المتطوعين في صفوف اللجان الشعبية عندما لم يكن هناك أي خطر يهدد المدينة!!

فماذا كان الهدف من تأسيس تلك اللجان؟ ولم تطوع بطلنا؟ أولاً: تطوع لأنه ببساطة كان لا شيء وأصبح كل شيء، أصبح قادرًا أن ينتقم من أي شخص وكل المدينة تبتغي رضاه وأصبحت لديه صلاحيات هائلة تمكنه من اعتقال أي شخص لأتفه الأسباب وربما لن نرى ذلك الشخص مرة أخرى!! ثانيًا: كانت هذه اللجان تسرق كل شيء بطريقة هستيرية من كل مكان يقتحمه ويتجاوزه الجيش السوري فلقد كانوا يصلون متأخرين إلى مكان القتال بحجة أنهم متطوعين أساسًا وليسوا مطالبين بالقتال خارج مناطقهم فيسرقون كل شيء من المنازل والمعامل والمحال التي يمرون بها، كل شيء تمامًا فحتى بلاط الأرض سرقوه وأكبال الكهرباء!! أصبح صاحبنا من أغنياء المدينة كما أنه أصبح من وجهاء القوم رغم صغر سنه!

وهذه الحالة تذكرني بالأشخاص الآخرين الذين كانت تغفر كل أخطائهم قبل الحرب، هؤلاء الذين ذهبوا إلى الحج في مكة وغفر الله لهم كل ذنب عادوا أنقياء كالأطفال ومبجلين ومحترمين بين أقوامهم!!

هؤلاء لا يشك الناس أبدًا بصدقهم ويفوضونهم لحل النزاعات مهما كانت قراراتهم، كانوا مقدسين تمامًا!!

الفرق الوحيد أن بطلنا الأحمق تطهر بالموت بينما يتطهر الآخرون بالتدين الزائف ويستمتعون بحياة رغيدة بلا محاسبة من المجتمع الغافل والمغيب.. من مجتمع يتمتع بازدواجية غريبة لم أفهمها!!

كل الأعمال السيئة التي قام بها صاحبنا وكل الأذى الذي سببه لعائلات المعتقلين.. كل الأموال التي غنمها من سرقاته لمنازل المهجرين كلها قد نسيها الناس ولم يذكروا له سوى موقفه البطولي المفبرك في معركة افتراضية ما وأصبح شهيداً يحبه الشعب والله وكانت جنازته أعظم من جنازة أي مفكر أو شاعر أو معلم محترم!! نفاق اجتماعي لا حدود له يغزو قلوب وعقول الغافلين في مجتمعاتنا ، طيبة ساذجة وتفكير محدود وذاكرة ضعيفة!!

-القداسة.

-غريب؟!!

-نعم.

-ما الذي قلته؟

-قلت: القداسة ، لا أفهم طبع الإنسان هذا.. يضفي القداسة على أشياء وأشخاص حتى ليصبحوا أعلى مرتبة من الإله نفسه كما أنه قد يضفي الدناءة على أشياء وأشخاص حتى ليصبحوا أدنى مرتبة من الحيوان!!

-ليسهل عليه قتلهم أو الاستسلام لهم.

-كيف ذلك؟

-القداسة تضفى على أشخاص لا يمكن لنا أن نتغلب عليهم أو حتى أن نفهمهم فالإنسان القديم كان يضفي القداسة على زعيم قبيلته لأنه الأقوى ويعتبره سليل الآلهة ليبرر عجزه عن مقاومته وخنوعه له، والدناءة أيضًا تضفى على أشخاص نود أن نزيلهم من طريقنا حتى لو بالموت ونتفادى بذات الوقت تأنيب الضمير لأنهم أدنى منا كأي حيوان نقتله لنرضي غريزة الصيد البدائية المتأصلة فينا!!

-أضف إلى ذلك؛ إضفاء القداسة على الحروب لإقناع أكبر عدد ممكن من البسطاء بأن يقاتلوا ويقتلوا لخدمة مصالح شخص أو طبقة معينة مقتنعين تمامًا بأنه واجبهم المقدس تجاه الوطن والله!!

-وقداسة الأنبياء الذين اعترفوا في كتبهم أنهم ليسوا إلا بشرًا مثلنا لا يميزهم شيء سوى أن الله اختارهم ليس ليكرمهم بل لينقذ أمة ما من الضلال على حد زعم كتبهم التي أصبحت تمتلك ذات القداسة، فأصبح بمقدورك أن تنتقد الإله بذاته لكنهم لن يسمحوا لك أبدًا أن تنتقد نبيهم أو كتابهم!!

-أنا تأخرت عن العمل يا غريب عليَّ أن أذهب الآن.

-هيا.. لنذهب معًا.

❖ ❖ ❖

**الذكرى (7)**

كانت تجيبني ذات الجواب في كل مرة أسألها عن سبب حبها لي، كانت تقول: "لأنك تحبني!!"

كان يرضيني ويقنعني هذا الجواب ولم أكن أعرف أنها لم تحبني يومًا بل كانت فقط تستمتع بمحبتي.. تتفقدها دائمًا بطلبات متعددة وحركات مثيرة! تتفقدها كأي شيء تملكه، كأي شيء في حقيبتها!! كلما شعرت بفتور مشاعري أشعلتها من جديد فلقد كانت تعرف الطريقة المثلى لتفعل بي ما لا أستطيع مقاومته، أخبرتني يومًا أنها اشترت ملابس داخلية جديدة وكنا في يوم الخميس ليلًا وكان عليَّ أن أنتظر حتى يوم الأحد لأراها، كنت أموت اشتياقًا وشبقًا.. أستمني كل ثلاث ساعات وأرهق جسدي ولكن الشبق لم يكن إلا جرثومة لعينة تجتاح عقلي وروحي، لم أهدأ حتى يوم الأحد وكالعادة في الساعة الحادية عشرة صباحًا كانت تقف أمامي وأنا راكع على ركبتي أقبل فخذيها العاريين وألتهم ما بينهما بحرمان ألف سنة!! كنت أقول لها دائمًا: "أنت أقوى مني، أنا لا أستطيع أن

أقاومك." فتضحك فقط ولا تجيب فلقد كانت قوية حتى في تلك اللحظات، تستجيب كالملوك والأبطال وتحني عليّ بنظرة خبيثة وقبلة في الهواء فأضحك كقطٍّ أليف وأنتظر منها طلبًا جديدًا!!

-اليوم تنعم هي بحبٍّ جديد وتبدو سعيدة أما أنا فأقبع هنا معك في هذه الغرفة البائسة وحيدًا بسيلٍ عارم من المشاعر في داخلي، مشاعر لا فائدة منها ولا أحد يريدها فكل ما أراه وكل ما أعانيه وتعانيه بلادي يصل بي إلى استنتاجٍ وحيد؛ أن الحياة ليست عادلة يا غريب فالقدر ليس عادلًا!!

-ليست عادلة!!

أوووه.. نعم معك حق، ليست عادلة فأنتم البشر ليس لديكم سوى هذا الجواب الأناني وتلك الحجة الحمقاء.

-لماذا تقول ذلك يا غريب؟!!

-دعني أسألك؛ لو رأيت شابًا يطلب مالًا أو طعامًا من المارة وهو بكامل صحته، ماذا ستقول؟

هل ستعطيه مالًا لأن الحياة ليست عادلة؟ أم ستقول له أن يغرب عن وجهك ويبحث عن عمل؟ لو تقابلت صدفة مع صديق قديم عرف عنه إهماله واستهتاره بالدراسة وكان فقيرًا معدمًا بينما أنت تنعم بحالٍ جيدة.. هل ستقول أن الحياة ليست عادلة؟ هل ستفكر بالظروف التي مر بها. تلك التي خفيت عنك؟ أم

ستقول: هذا جزاء الإهمال؟!! آراؤكم أنانية يا صديقي ولا تنطبق الحجج والمبررات إلا عليكم وحدكم.

يقول ذوي البشرة البيضاء: "ذوي البشرة السوداء ليسوا مثلنا ولن يكونوا ويمكنهم أن يأخذوا حقوقهم كاملة لكنهم لن يكونوا مثلنا يومًا." ويقول السنة: "الشيعة ليسوا مثلنا وحتى لو أجبرنا (خجلًا) أن نعتبرهم مسلمين فإنهم لن يكونوا يومًا ما مثلنا ، نحن الحق ونحن الأفضل." ويقول قائل: "أهل الخليج العربي ليسوا سوى حفنة من الرعاة، نزلوا من ظهر الجمل إلى بطن المرسيدس!! لن يكونوا مثلنا يومًا." ويقول العرب: "نحن شعب الله المفضل وكل الأوربيين والغربيين كفار ومهما تقدموا في هذه الدنيا لن ينفعهم ذلك بشيء في الحياة الآخرة ، نحن الأفضل!!" ويقول الرجل: "المرأة خلقت لتنجب وتربي الأطفال وحتى لو عملت وأنجزت واخترعت ستبقى أقل قيمة من الرجل، ألم يخلقها الله من ضلع الرجل؟!!

الرجل هو الأصل، هو الأفضل!! الحقيقة يا صديقي، أنكم لستم عادلين والحياة والقدر كانوا وما زالوا حياديين في هذه المسألة!!

صوتُ الغريب ـــــــ

# الفصل العاشر

"يحدث الفصام فقط عندما تتعارض المصلحة الشخصية مع الأفكار والمبادئ التي نؤمن بها."

صوتُ الغريب ـــــــ

-كيف استطاع كل هذا التعب أن يتسلل إلى جسدي وروحي يا غريب فأنا متعبٌ من كل شيء، من الحب والصداقة والكذب والنفاق الاجتماعي والخسارة التي تلازمني كمرضٍ وراثي لا سبيل إلى علاجه!! بماذا سنتحدث يا غريب؟ تحدثنا بكل شيء ولم يبق لنا سوى الصمت الذي يعني موتك وموت المراهق بداخلي، موت كل جميلٍ وشقي وطائش.. يا لها من بائسةٍ تلك المرحلة التي تقرر فيها أنك أصبحت ناضجًا!! أنك لن تستطيع بعد اليوم أن تكرر طيشك القديم وعلاقاتك المثيرة وأنك سترسم حدودًا جديدة لنفسك أكثر ضيقًا وصلابة من أي حدودٍ عرفتها في حياتك.. النضج هو حالة النفاق القديمة التي ما زالت تخفي حقيقتها عن الجميع والمراهقة هي طريقنا الوحيد إلى السعادة، طريقنا الذي لا بد أن نتوه عنه يومًا وسعادتنا التي لا تطيق المكوث طويلًا.. سترحل الآن يا غريب لأنني قررت أن أحكم حبل المشنقة على عنق الفرح وقررت أن أتخذ الصمت رفيقًا! قررت أن أنضج.

"يعم الصمت، صمت طويل ومزعج يقطعه صوت أسنانه وهي تخترق حبة خوخ وتتغرز فيها بعمق وتجتث منها قطعة كبيرة ليلتهمها."

- غريب، يا غريب، هل ذهبت؟ هل أنت هنا؟ غريب.. رد عليّ يا غريب؟

-نعم، أنا هنا.

-ذهبت بهذه السرعة يا غريب!!

-لم أذهب إلى أي مكان يا صديقي.

-غريب، لماذا يكون الجزء الخارجي من حبة الخوخ أكثر حلاوة من الداخل وكلما اقتربنا إلى الداخل تقل الحلاوة حتى تتحول إلى مرارة؟!!

-الخوخ ببساطة يا صديقي ككل الأشياء خارجه حلو ولذيذ ومقنع وجميل وداخله مرٌّ ومزعجٌ وقبيح، كل الأشياء إذا حافظت على معرفتك الضحلة بها تبقى جميلة وحلوة ولكن كلما تعمقت أكثر في حقيقتها يتناقص جمالها ويزداد القبح والبشاعة، أحيانًا أن لا تعرف كثيرًا أفضل وأكثر راحة للبال ولكن هل تستطيع أن تكبح فضولك الجامح يا صديقي؟

-لو كنت أستطيع كبح فضولي ما كنت عرفتك يا غريب!!

-ماذا ستفعل الآن؟

-لا شيء، كنت سأخرج لأتنزه قليلاً.

-لنذهب معًا إذًا، لن تضرك بعض الصحبة يا رفيق.

❖ ❖ ❖

-دعنا نجلس هنا فالمكان هادئ وليس مزدحمًا، لا أريد أن يظنني الناس مجنونًا وأنا أحادثك يا غريب.

-اجلس حيثما تشاء.. لا فرق.

- اليوم يا غريب تحدثت مع صديقٍ لي، كان قد لجأ إلى ألمانيا في بداية الأحداث في سوريا ولقد انزعج من مقالٍ كنت قد كتبته عن الإيمان والإلحاد حيث كتبت في المقال أن الإيمان لا يجعلك شخصًا أفضل، فالأخلاق شيء نتعلمه ونتربى عليه.. شيء أقدم من كل الأديان، هي اتفاق البشر جميعًا على التعايش بسلامٍ ومحاولة للسيطرة على التصرفات الشاذة والمؤذية، عن طريق قوانين تضمن الحق والواجب وأن الأديان لم تحد عن هذا السياق القديم بل ربما غيرت المسميات وقدمت أطرًا جديدة فقط!! كان مصرًا أن الإنسان الملحد هو بالضرورة عديم الأخلاق رغم أنه يعيش في بلدٍ يغلب عليه طابع الإلحاد والشعب الألماني الذي احتضن اللاجئين من كل أنحاء العالم كان شعبًا كريمًا وخلوقًا بل أنه أكثر أخلاقًا وكرمًا من

كثيرٍ من الدول الإسلامية والمتدينة التي لم تقدم إلا السلاح والمجاهدين التي لا تقدر هبة الحياة وروعتها بل تعمل دائمًا على نشر ثقافة الموت والشهادة!! كيف لا يرى صديقي كل ذلك؟ كيف يكره أناسًا ويعتبرهم عديمي الأخلاق برغم ما قدموه له من أمانٍ وحياةٍ كريمة بعدما حل في بلاده من حربٍ وويلات؟!

-يا صديقي، السبب هو أدلجة العقول التي نمارسها كل يوم دون أن ندري فالتربية التي نعتمدها في تنشئة أبنائنا لا ندرك مدى أهميتها إلا عندما نرى الأثر على المجتمع ككل..

ثقافة كره ورفض وشيطنة الآخر هو ما نفعله كل يوم ظنًّا منا أننا نحمي أبناءنا من الخطأ والانحراف لكننا في الحقيقة ننشئ جيلًا من العقول الجامدة التي ترث الإجابات على أسئلتها في كتب التراث والفقه.. ننشئ جيلًا من العقول المعطلة التي ترث الأحقاد والأهداف والنوايا!!

صديقك هذا ليس إلا بيدقًا تحركه كلمات قالها فقهاء ماتوا منذ مئات السنين.. كلمات نالت من القداسة ما جعلها حقيقة مطلقة لا يجوز نقاشها أو الشك بها!! سأروي لك يا صديقي قصةً قصيرةً عن طفلٍ وحيد كبر وحيدًا لا ترافقه إلا بعض الكتب والهواجس والأفكار وفجأة قرر أن يروي للناس قصةً غريبةً جدًا عن كونه تذكر حيواته السابقة كلها وأنه في واحدةٍ كان ملكًا وفي ثانية كان نبيًا وفي ثالثة كان زعيم

ثورة كبيرة، وفي رابعة كان حاكمًا دكتاتوريًا.. كل من سمعه كان ينصح والديه أن يستشيرا طبيبًا نفسيًا ولكن والدته التي آمنت بتناسخ الأرواح رفضت وشجعته أن يروي لها تفاصيل حيواته السابقة وكان كل من يسمعه يقشعر بدنه لدقة التفاصيل وبشاعة وجمال المواقف التي كان يتحدث عنها!! المشكلة الوحيدة أنه لم يتذكر أسماءه السابقة أبدًا ومع ذلك كان يروي أنه في كل حياة قد أصبح مشهورًا جدًا وأيضًا كان له أثرًا بالغًا على كثيرٍ من المجتمعات لكن التفاصيل والوقائع التي كان يرويها، كلها غريبة جدًا ولم يتذكر أحد أنه قرأ عنها في كتابٍ ما كأنه عاش كل ما عاشه في كوكبٍ آخر!! كان اليافع موسوعة معرفية ضخمة حتى بدأ الناس يثقون بما يقول ويصدقونه وآمن أغلبهم بتناسخ الأرواح وبدأت نظريات الموت الأخرى تتهاوى أمام ثباته وقوة إقناعه وتأثيره الكبير في نفوس السامعين!! وكبر ذلك الفتى وأصبح له الكثير من المريدين والتابعين والخدم والحرس ثم ألّف كتابًا قال للجميع بأنه يروي فيه كل الحقائق التي خفيت عنهم جميعًا، عن الحب والموت والحياة والخالق والكون كله حتى اعتقد أغلبهم بنبوته وأصبح من يدخل مجلسه يقبّل يده ويطلب منه الدعاء والرضا ثم قاد ثورة على الحاكم الذي كان يحكم البلاد وطبعًا نجحت وبلا منازع وأصبح بمبايعة الجميع الحاكم

الجديد ثم ما لبثت أن تحولت تلك البلاد إلى مملكةٍ ونصّب الحاكم نفسه، الملك الأعظم.

-وماذا تريدني أن أفهم من تلك القصة يا غريب؟

-أريدك أن ترى هشاشة البشر وبساطتهم، أن تعرف أنهم لم ولن يكونوا يومًا إلا عبيدًا للأيدولوجيا، شخصٌ واحدٌ يا صديقي قادرٌ على قيادة مجتمعٍ كامل بأبسط الأفكار.. البشر يصبحون لا شيء أمام فكرة تروى بطريقةٍ محكمة وجديدة!!

-اكذب اكذب حتى تصدق.. الحق معك يا غريب.

-نعم.

-غريب.. سامحني.

-من أجل ماذا؟

-لأنني في لحظة ضعف أخبرتك أن تذهب للأبد ولا تعود.

-لا يا صديق، ما من داعٍ للاعتذار فأنا لا أذهب ولا أعود يا عزيزي.. أنا موجود منذ الأزل وسأبقى للأبد.. أنا صديق البشر جميعًا.. أنا الصحوة والفكرة.. أنا الخير والشر، الألم والفرح!! لن تتخلص مني عندما تجدني حيث كنت دائمًا، داخلك يا صديق فأنا الثورة التي تأكل كل شيء ولا يعود أي شيء إلى حاله الأول بعدها.

-فلتبقى إذاً يا غريب يقظاً في داخلي لأنني لم أعد أشعر بغرابتك بعد اليوم، فلتبقى صديقاً دائماً ومرشداً وفخاً عميقاً تسقط فيه كل الأوهام والأكاذيب.

# تمّت

هذه الرواية ليست مجرد حكاية تروي.. إنها كتاب النضوج الذى يقودنا إلي وعى جديدٍ لكثيرٍ من المفاهيم التى تحكم أساليبنا وطرقنا فى التعامل والتعايش.. إنها رحلة العقل عبر مراحل متعددة نحو فهمٍ جديدٍ للحب والحياة والموت و(الله) والإنسان.

ISBN 978-614-456-089-1